صيد المطر

قصص

إبراهيم عطية

دراسة

دكتور صابر عبد الدايم



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٧

إشراقات جديدة

تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب

الإهـــــداء

إلي زهرة الحياة ..

إلى من يحلمون بالحرية في كل مكان ..

وإلى الشمس التي تطلع من عيون الليل ..

لتهب الأرض الحياة .

إبراهيم

عطية ، إبراهيم
صيد المطر : قصص / إبراهيم عطية ؛ دراسة: صابر عبدالدايم . ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦.
١٥٢ ص ؛ ٢٠ سم. ـ (سلسلة إشراقات)
تدمك X ٤٩٠ ٤١٩ ٩٧٧
١ ـ القصص العربية القصيرة
(أ) عبد الدايم ، صابر (دارس)
(ب) العنوان
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٢٣٩٣/ ٢٠٠٦
I.S.B.N 977 - 419 - 490 - X
ديوى ٨١٣,٠١

خمسة أمتار

بالتمام .. تعيد الثقة !!

الآن جاء الدور علي ، الآن فقط أستطيع أن أثبت للعالم أنني موجود.

والآن أحسست بالفضاء يتسع من حولي .. تسربت رعشة وترت أعصابي ، جعلت أسناني تصطك ببعضها ، بدت التكات رنين جرس في رأسي ، زادت دقات قلبي ... الترقب والانتظار زادا من حدة التوتر ، تثلجت أطرافي، درت في مجرات الكواكب ، ذهب عقلي للبعيد مع رجفة النهاية ، إلا أن أشعة الشمس القريبة لسعتني محاولة تهدئتي ..

أنا الوحيد في هذا الفراغ ، أفزعني ذلك المخلوق الفاتح شدقيه مبتلعا السماء ، عيناه الجاحظة

تشع شررا يشبه النيازك .. لو سقطت على واحدة لأحرقتني ... يا منجى من المهالك علت قهقهاته .. زلزلت الدنيا .. أكلت الريح من الصبة الخرسانية ذرات رمل عفرتتي ، صهلت خيول الرعد ، سيف البرق شق الغيوم المتراكمة فنزفت قطرات المطر ، اقشعر بدني أنا الواقف وحيدا أرقب الناس تحت قدمي ، خمسة أمتار بالتمام والكمال ، نفس المسافة التي اعتدت عليها من موضع قدمي إلى سطح الماء اللامع ، زغللت عيني ، أوقعني الخوف في دوامة الدوخة ، اختلطت المخلوقات الرمادية.

تماسكت محاولا قتل المخلوق الشيطاني الذي احتواني، بقدر استطاعتي صمدت ، بالتأكيد سوف يتخاذل مع التركيز ، وامتصاص نظراته النارية ، المهم الجرأة - ذرة شجاعة .. سحرتني .. أنعشت بدني (الكاشش) ركزت في الحصوات البنية البارزة من

الخرسانة ، باسترخاء حاولت .. لابد من التغلب على التردد ، تلك العادة التي أفقدتني أختي الصغرى " أسماء " وهي تستنجد بي من الغرق ، كانت تقب وتغطس ، وأنا واقف مشلول الحركة ومن يومها تعلمت السباحة ، لكن هذه العادة الذميمة ما زالت تلازمني ، تظهر بمثابة صدمة في المواقف الصعبة ، هذه اللحظة بالذات لا يمكن التراجع ، لحظة مصيرية في حياتي ، لقد ضاعت حبيبتي (هالة) حين خيرتني بين التقدم لخطبتها أو الفراق ، ترددت وتخاذلت عن نجدتها من سطوة أبيها الطماع ، باعها لرجل ثرى يكبرها في السن ، الآن لا يوجد فرصة للاختيار ، إما الحياة أو الموت ، أعتقد أنه مهما كان الأمر فإن المسألة منتهية و"يا روح ما بعدك روح" ، دوت الإشارة زعقة أحدثت دويا رهيبا أصم أذني

انسخطت الأرض بمن عليها ، الجمهور المحتشد في المدرجات أسراب نمل أسود ، الهمهمات غلفت المكان بالضوضاء ، و" البسين " نقطة من السماء الزرقاء ، بحرص شديد تحركت ناظرا للأمام ، محدقا في الفضاء الواسع ، مد المخلوق العملاق كفه .. غمى عيني بغيمة كثيفة ، اختفت أشعة الشمس ، ركبت جواد الجرأة ، مشدود السرج بعد أن جذبني بريق عينيه من صمت التردد ، متماسكا صعدت إلى السماء دائرا في دوامات ملكوت الوحدة ، فارسا أصارع الريح والعملاق. بالتأكيد .. لو انزلقت قدمي ستكون النهاية الحتمية ، لكن صعود الروح من هنا أسهل بكثير بالنسبة لملك الموت .. أليس كذلك ..؟! سوف أوفر عليه الجهد ، وأصعد وحدي. بدت العصافير الرمادية صغيرة ، و أسراب الطيور صغيرة ، والكائنات على الأرض صغيرة ، فتضاءلت إلى نقطة في فضاء الكون الكبير.

هذه القفزة المصيرية .. بها ستعود إلى ثقتي المهزوزة .. عليها يتوقف مستقبلي ، حياتي ، تكسبني القدرة على اتخاذ القرار دون تردد.

اقتربت من حافة المقفز ، تأهلت في وضع الاستعداد ، علت دقات قلبي ، ازدادت الرعشة ، أغمضت عيني ، استنشقت نفساً عميقا من الهواء البارد.

فجأة .. اختل توازني ، انزلقت قدمي اليسرى ، وحدي في الهواء ، خفيف الوزن ، ريشة تحملها الريح ، لا أعرف أي يد خفية دفعتني ، انجذبت إلى أسفل ، هي النهاية لا محالة لو سقطت على حافة الحمام الرخامية لتهشمت عظامي ، غيمت الدنيا ، وأظلمت ، صراخ أحنى تستغيث بي ، وجه (هالة) القمري أغرقته الدموع ، أتهاوى ..

من المستحيل إنقاذي إلا بمعجزة ربانية تنتشلني، حاولت قدر استطاعتي ، فاردا ذراعي أرفرف كعصفور حر مسرع ، منتوف الريش ، انجذبت دون

جدوى إلى أسفل ، بجهد لويت جسدي الممطوط ، بصعوبة غيرت حركة كتلة اللحم المتهاوية.
يا قادر ... زعقت من داخلي ، فقلبتني يد الريح (شقلباز) نصف دائرة مستعدلا وضعي في الهواء البارد حتى لا يلاحظ أحد زلة قدمي هذه .. فردت ذراعي بمحاذاة رأسي الساكنة بينهما وجهي إلى أسفل ، إنخطفت بفعل الجاذبية الأرضية.

لا شك أن كل سالب له موجب ، وبما أنني قطب سالب ، والأرض الموجب .. فانجذبت بسرعة المغناطيس ، تلاشت كل الكائنات .. اخترقني صفير الهواء متسللا إلى طبلة أذني ، بانسيابية غطست .. هويت إلى أسفل القاع ، بدأت قوة الدفع والجذب تتلاشى شيئا فشيئا مع الارتطام بالماء ، تراخت عضلاتي المشدودة بعد تفادى كرباج الماء ، لو ضربني لشق بطني وأصابني في مقتل.

حين شعرت بدفء الحمام ، انتعشت ، دفعت جسدي إلى أعلى ، ضاربا ذراعي ، صاعدا إلى أعلى ، بدأت أنفاسي تنتظم .. شهيق .. زفير .. استرخيت على ظهري طافيا ، هد ائت دقات قلبي .. بحفنة ماء غسلت وجهي نافخا الهواء ، تفتت الرعشة والخوف إلى ذرات وتلاشت مع فقاعات الزبد الصغيرة المتطايرة على سطح البيسين .

علت الهتافات ، والتصفيق من صفوف البشر الجالسين يشاهدون المسابقة من بدايتها بالتأكيد يتعاطفون معي ، لا يريدون إشعاري بالهزيمة.

ظهرت الدنيا كما هى الدنيا ، والناس كما هى الناس بسحنتهم ، وأحجامهم ، وعاد لجسدي وزنه ورشاقته ، وحيويته التي امتصها الرعب والفزع .

اقتربوا مهللين عند خروجي من الحمام ، فرت الدموع من عيني ، غامت الدنيا ، وانتابتني رجفة دغدغتني ،

فارتميت في أحضان الكابتن "محمود" مدربي ، وبكيت .. أغرقتني قبلاته الحارة ، تراخيت مستسلما لحضنه ، دفعني وهو يشد على كتفي ..

• قفزة عظيمة يا بطل ..!

ضاعت النواني واللحظات حين أعلن ميكروفون المذيع الداخلي فوزي ، وتحطيم الرقم العالمي ، ازداد التصفيق والهتافات ، بحماس حملوني على الأعناق ، مغيب الوعي ، نظرت إلى السماء أرقب الطيور الراحلة للبعيد ، والشمس التي احمرت أعلنت المغيب ، بدا المخلوق الخرافي بين الغيوم الكثيفة يقهقه بسخرية عالية أصمت أذني ، عدت متخاذلا أنا البطل فوق جواد الصمت ، أحدق في السماوات باحثا عن اليد التي أنقذتني ، وعدلت وضع جسدي أثناء سقوطي من فوق المقفز، فانجذبت ناحية النور الكامن في أعماق الكون .

طــلل النحــاس

تلاشى ظله الممدود حين حركته نسمات رطوبة البحر ... رذاذ الماء المالح بلل وجهه الفولاذي الذي أغرقته المصابيح في ظلام وحدته.

ربما لا ينطق بما يراه .. لكنه يغافل لحظة السبات ويشير للسفن المارة ، يبادلهم التحية ، أطل على المعدية المقبلة بكم هائل من السيارات ... حدق في النور المسلط ناحيته ... غطى وجهه بذراعه متصديا زغللت هالات الظلام ، رغبة دفينة في صدره تدفعه نحو المجهول.

ربما مسخته إحدى الجنيات مخلوقا نحاسيا ، اختنقت الزعقة فوق شفتيه ورسبت طبقات الملح الهشة

فراغات حالكة الظلمة .. برهة من الوقت جعلته يحسب للموقف ألف حساب ... أزيز طائرة شراعية داعبه ، أيقظ في مخيلته صورة الماضي ، ولحظة العبور العظيم ، وعودة الكرامة ... متى يعود ليعيش بين الناس .. ؟

أفاق على صوت همهمات كثيرة استدار حوله محملقا في الوجوه التي (ترطن) بلهجات غريبة ، بهذه السرعة تحققت أمنيته مرح خفي أنسه بطمأنينة الزحام ، وأفراد الفوج السياحي يؤنسونه .

أضواء فلاش الكاميرات أرمدت عينيه حتى تهيأت أشباحا ... العلم المزروع في قلب الصخرة يطوحه الهواء ... منذ وقف هذه الوقفة والبندقية في قبضته ... متى يمسك بالفأس...؟

لقد مل المدينة قلبه المتأجج بعشق الأرض عبر إلى الضفة الغربية المزروعة بالخضرة الصحراء

تناديه   يذوب عشقا .. يجب ألا يستسلم للفح الهجير
دندنة الصمت بأوردة الراديو   ..

" نفوت على الصحرا تخضر

نشقى خدود الناس تحمر .."

لا يذكر بالضبط كم من الوقت مر على وقفته هذه ...! ما يعرفه أن كل شئ تغير لكن ببطء شديد ..! الفوج السياحي متعدد الجنسيات يثيره ... تشققت قشرة جسده الصلبة ... برزت نتوءات الشيخوخة صفوفا من أطلال الفراعنة في (تل بسطة) بجانبه ... فطريات الإعجاب ببنيانه القوى كونت خلية من الدهشة.

تأفف ... نفخ نفخة كونت زعابيب ، ونوة أطاحت بالمعدية الواقفة على المرسى في قلب المياه ، هالهُ منظر الفتى الأشقر الذي اختلى بالفتاة الشقراء حتى التصقا ببعضهما غافل الواقفين وخطفه بسرعة من ياقة قميصه ، ألقاه بعيدا ، فبهت الفتى وأوجس خيفة ...

كان يراقب الموقف من بدايته حين غمز لها فابتسمت وتمسحت به كقطة تتمسح بأليفها أشارت له ..:

_ هـاي .

بادلها التحية بفرح ، سحبت الكلمة من لسانه ...:

_ هـاي .

داعبته ذكرى امرأته على باب الدار باكية ، ولده ابن الشهرين ، فلذة كبده أقسمت كل العائلة أنه يشبهه ترى أين هو الآن ...؟ تمنى لو ضمه إلى صدره وشبع من حنين البنوة...

بدت ملامح الإرهاق المفاجئ تجبره أن يتخلى عن خدمته التي امتدت في حراسته نقطة العبور ... أوقفوه طللا شاهدا على هذه اللحظة ... حدق في قطعة الرخام المنقوش عليها اسمه ، فزج بها متأففا على أيام صباه الفائتة.

في المياه اختلطت صور أصدقائه الغرقى في قاع القناة مع هزهزة نور المصابيح ... طيف الوحدة ينذر بشيء خفي خلف حجب الليل .

ما إن تحرك حتى بدت خطوات البياده ترن فوق الأسفلت مثل بندول الساعة مما نبه أحد جنود حرس الحدود ، فتوارى خلف صخرة على الجسر حتى لا يفزعه ، بالتأكيد إن شافه الجندي سوف ينزعج ، وقد يسقط مغشيا عليه .

ندهته الخائفة تتضح مع أقدامه وتقهقرة ...:

_ أثبت محلك ..!!

هجم على خوفه كأسد جائع وثبت مكانه ... اقترب منه الخيال المهزوز ...! ألجمت الدهشة لسان الجندي ففر مسرعا ناحية الفراغ اللانهائي ... أين البسالة والتضحية في أداء الواجب ...؟! أه لو يستطيع إطلاق النار على هذا الجبان ..

عبر الطريق كطيف البرق ، خشية السيارات المارقة على الأسفلت ، مر على مقهى جانبي وألقى السلام على الجالسين ... زاموا بقرف غير مفهوم ... !
اختلط السعال بكركرة (الجوزة) ورائحة هرج النكات السخيفة .. لمح أحد أفراد الشرطة العسكرية ... انقبض قلبه فزعا ... تمنى لو تنشق الأرض وتبتلعه .
كيف لم ينتبه إلى هذا الكمين المنصوب وعربة (الجيب) الخاصة بالدورية الانضباطية مختفية في ركن جانبي .
تراجع في خفة طائر النورس .. تقهقر متخليا عن صلابته...تملكه الضعف الفطري .. لم تخطر بباله هذه المطاردة .. ظن أن الناس سوف يهللون فرحا لعودته .. لم يكن يتوقع هذا الموقف الصعب .. أن يكون مصدر إزعاج لغيره .. إنه أتعس ما في الوجود .

هرول مسرعا .. تتبعه الجنود حتى أوقعوه في (الفخ) .. لم يقاوم .. مع من يقاوم ، وهم إن عرفوه سوف يحيونه في إجلال .. يعاملونه بوقار واحترام ، أحس بغناء العالم من حوله .. بخبرته المدربة يستشعر الخطر ، يستطيع أن يصرعهم جميعا لكن لا مجال للمقاومة .. !

اقتربوا منه وقيدوه ..:

_ يا وقعة أبوك سوده كمان حرامى سلاح ... !

لا يعرف بالضبط ، ماذا يقصد هذا الجندي الأحمق ؟!

ألانه يحافظ على سلاحه ، عهدته الميرى يصبح حرامى..؟!

_ سلاحى شرفي يا بلد ..!

قهقه القرود ساخرين ... حاول أن ينتزع يده المقيدة حتى لا يسقط العلم ، فلكزه أحدهم (ببونيه) غدر أوقعته في غيبوبة الغضب .

_ هات الكار نية ياله ..

تحسس القرص المعدني المثبت بالقايش في وسطه عليه رقمه العسكري وبيانات الوحدة ..

أمرهم الضابط بتفتيشه حتى جرده من (الأفرول) المموه والبياده ...

ـ وكمان منتحل شخصية عسكرية يا روح أمك وقعتك مطينه .!

انهالوا عليه ضربًا ، وتجلطت بقع الدم شارات حمراء على الأكتاف ، وبركلة قوية من الخلف سقط محتضنا العلم والسلاح .. شعر بفراغ الكون .. إنه بالتأكيد وقع أسير خدعة في أحد معسكرات تعذيب للعدو .. لم يحدث شئ كهذا من قبل ...!

ما يعرفه أن هؤلاء لحمايته ورفع معنوياته .. أية مروءة وشهامة بل أية شجاعة تجعله يتخفى متواريًا عن أعين الناس في ملابسه الميرى التي تسبب الإزعاج ، فقدت قيمتها وهيبتها ..!

تصارعت أمامه نخوة الرجولة ، نمت بذور الغضب مع الشعيرات التي تغطى صدره ، فأخرج من فمه خوار الغيظ إثر لطمة مباغتة أحيت حواسه المكبوتة، فصاح بكل قوته صيحة تمرد وتحفز زلزلت الدنيا من حوله ، وانسخط الجنود أحجارًا على الشط المتآكل من المد والجزر.

حاول أن يعود لمكانه مرة ثانية مخترقا الطريق فى لمح البصر ، على الرصيف عثر على رجل مبتور الساق ، فوق كرسى متحرك ، فوقه كومة من (الهلاهيل) المتسخة ، تصفح الوجه ... أضاء فانوس الذاكرة للوراء.. أنه يعرفه بالتأكيد نفس (السحنة) نعم " عوض " عوض عبد المتعال أحد أفراد المقاومة المتطوعين من أهالي القنطرة شرق هو بلحمه وشحمه .. نادى عليه فتلفت الرجل تتخفى نظرات الخوف بين لحيته الطويلة .. اقترب منه .. ثمة شعور دفعه أن يرتمي في أحضانه

_ نعم يافندم ..

" أفندم ... عوض ألا تعرفني أنا محمد عبد الرحمن صاحبك رفيق الفرقة الانتحارية على الجبهة ...

بهت الرجل وتفحص وجهه بصمت مميت

_ محمد إيه يا فندم ..!!

محمد أفندي راح من زمان - الله يرحمه - وقال إيه الحكومة عملت له تمثال تصدق يا بلد تمثال .. شفته .. هو اللي واقف رافع العلم عند المعدية .. والله يا بلد ربنا كرمه وارتاح ، أما أنا ياما جاب الغراب. أدولى قرص نحاس وورقة قال إيه وسام الشجاعة والبطولة .. هيئ يا بطولة ..!

نبش بإصبعه المهزوزة في المسبحة القهرمان والجعران الأزرق المدلى من رقبته ، فأطلت الميدالية الصفراء مصبوغة بطمي أزرق باهت ... راح يقذف وسب الدنيا والزمان الذي جعله يرى هذه الأيام ...!

الناس تجاهلته وهو الغائب البعيد عن عالمهم ...
عودته الشبه مؤكدة بالشوق ، لم يستشعر الأمان المنشود مع الناس ، من يعيش معهم لا يشعرون بمعاناته ...!

غرق في ظلام وحدته ، ترسبت ظلال الملح الهشة فوق طلل النحاس المغبش وفرد ظله الممدود على الساحل اخترق السكون صوت جندي حرس الحدود يتمم مع أفراد خدمته ..:

_ واحـــــد تمام .

يعود رجع الصدى مع هدير الموج ..

_ واحـــــد تمام .

سيرة ماجرى

لو رأيتموه صاحب الطلعة البهية .. ابن الحسب والنسب ، سليل الكرم ، الواقف الجالس على مملكة الإسمنت المزخرف بالجرانيت ، ذو الوجه البشوش .. بسمرته الطيبة .. شاربه يقف عليه صقر جسده الفرعوني ترعرع في بيداء العرب وارتوى بماء النيل ... زينة الفرسان ... حامي الحمى ... ابن المحروسة .. سيد الثوار .. العاشق المتعشق لحبات الرمال .. الواقف يرقب المارين ، فوق حصانه البرونز المنتفخ العضلات ، شاهرا سيفه ... والمزاد المنعقد تحت قدميه أصابه بصداع سيح طبقة (الزرينخ) المترسبة على كيانه ، وهش أسراب الذباب المتصاعد من (مشنات) الفاكهة وأكوام الزبالة ،

وفاحت العفونة من أفواه الأسفلت والبالوعات حتى ضاق من وقفته الممتدة من زمن طويل .. هو العائد من منفاه لينفى في بلاده على الملأ ... حتى صار تراثا في طيات الكتب ... نسجنا سيرته على أوتار الربابة ...

قلب الفكرة ... هذه المرة سوف يحسب لكل خطوة ألف حساب حتى يحصل على نتائج مذهلة ، غير متوقعه تعيد له السيادة والريادة مع عنترة وصلاح الدين وبيبرس والهلالي.

لما زاد الزحام بالخلق والعربات مع فحيح حر الظهيرة نزل من فوق حصانه وسار في المدينة يتفقد أحوال الرعية .. لم يشعر به غير الولد الواقف يتأمله وهو يقفز السور الحديدي ويفرك عينيه يتأمل ما يراه ..!!

وبعض الصبية الذين يلعبون الكرة علقوا عليه بتعليقات مضحكة للطربوش الأحمر وزيه العسكري القديم ..:

ـ يمكن يكون ممثل بيصور فيلم ..!

أحد الفلاحين خبط كفيه ..:

ـ لا حول الله .. العالم اجننت ..!

شد أحد الأفندية زميله من الزحام ...:

ـ بسرعة القطر حيفوتنا ، يمكن تكون تقليعة جديدة ، فيه ناس بيحبوا القديم ومتمسكين بيه ..!!

جرى بعيدا عن الميدان فقابل شلة من الصغار حاملين في أيديهم بعض الكتب .. استوقفهم .. ففروا هاربين إلا صغيرهم ، وقف يتأمله ويقهقه ضاحكا حتى دمعت عيناه .. أذهله ضحك الصغير يشير بإصبعه ..

ـ هيه بليا تشو .. بليا تشو ..

شاركه العيال وجروا وراءه يزفونه ..:

ـ البلياتشو اهوه .. البلياتشو اهوه ..

جحظت عيناه .. اغتاظ من الأطفال الذين لا يعرفونه ، زجرهم وكشر عن أنيابه .. اخرج السيف من الجراب

المعلق في وسطه فبرق في أشعة الشمس .. شق جبين الشجاعة التي تنبض في عروق العيال حتى فزعوا والقوا بشنطهم في وسط الشارع .. وقعت عيناه على غلاف كتاب (تاريخ مصر الحديث) أشار لهم بالتوقف .. فجروا ..:

_ ألا تعرفوني يا أحفادي أنا الزعيم ..

سخروا منه وفروا هاربين .. همس لهم الولد (القزعه) بالتوقف :

_ استنوا سامعين بيقول أية الزعيم ..!

_ صحيح ما يمكن هوه بشحمه ولحمه عادل إمام بس متنكر .. شوفوا عينيه..!!

رد عليه زميله صاحب الراء الضائعة ..:

_ يا خويه لو كان هوه كان الخبى ذاع في المدينة وخيجت الناس لمقابلته ..!!

التفوا حوله بشوق ولهفة .. اقتربت منه بنت صغيرة شقراء.

ـ يا أو نكل صحيح أنت أو نكل عادل إمام ... !!

صمت قليلا .. دارت في رأسه آلاف الأسئلة المحيرة ..:

ـ هل أنا في بلاد الإفرنجة ..!!

استوقف سيدة برميلية الشكل على سلالم النفق..

ففزعت منه وهبت فيه بنبرة حادة ..:

ـ يا خويه بلا هم .. إحنا ناقصين لحسة عقل .. حملق في الجالسين على جانبي النفق من الشحاتين أصحاب العاهات .. مد يده في جيبه فوجد قطعة فضية أسقطها في يد الرجل الأعمى الذي ما أن شعر بها حتى انهال عليه بالدعوات ..:

ـ الله يستر طريقك ..

هالهُ منظر الناس الذين يسيرون في ملابس افر نجيه ، وفتيات يكشفن الرؤوس .. يعرضن عريا مستباحاً ..

راح يضرب كفا بكف .. ما قرأه في " تلخيص الإبريز " يراه الآن ..!!

فرح حين رأى أحد المشايخ في جلباب أبيض .. لحيته مبللة بالمشيب تغطى ملامحه وعلى جبينه زبيبة كبيرة ..:

_ تسمح يا سيدنا الشيخ .

نفر منه بقرف واخرج من تحت جلبابه (سنجه) اشهرها في وجهه..:

_ إن لم تستح يا زنديق قطعتك بهذه ، ابتعد عنى لعنك الله يا نجس ، اخلع هذه المسخرة يا بن الـ ... .

".. ماذا حدث .. !! ألاننى أسأله المشورة أصبح زنديق .. في أي البلاد أنا ..؟!

والله لو لم يكن شيخا لوكزته وكزة أردته أرضا ... ".

كز أنيابه وجحظت عيناه وهم أن يقبض على يد السيف المغمد فى جرابه لكنه تراجع .. اتجه ناحية بحر "مويس" التراب المتراكم على ملابسه وجسده يشعره

بلزوجة العرق نسمة الهواء احتضنته مع خشخشة أوراق الصفصاف للقرية البعيدة .. كل شئ تغير .. حتى حصانه صديق عمره الذي علمه الكر والفر ما أن رأى المهرة الغبراء تجر العربة (الكارو) حتى صهل ورفس برجليه .. تركه .. وجرى وراءها. وقف على سور الكورنيش وقفز في الماء .. ضرب غطسا طويلا فارتطمت رأسه في عمود خرسانة الكوبري .. شهق ولفظ أنفاسه حتى استقر في القاع .. انتفخ وقب بين الهيش وورد النيل .. اجتمع حوله سرب (القراميط) فرح به الصياد الجالس على سور الكورنيش .. بينما العابرون اكتفوا بتكميم أنوفهم من الرائحة التي انتشرت في المكان .

***

في الميدان اعتلى عرش مملكته ووقف .. انتصب حوله المزاد واحتشد الناس .. وباعة الفاكهة المرصوصين ينادون على بضاعتهم :

صيـد المطـر

(نزل المطر *
جريت معاه
وحلمت أكون زي الطيور
وأوصل لا بعد نجمه فوق خد السحاب
كان نفسي ما عرفش الغياب
اخرج من الدايره الغلط
واسكن في قلب السوسنه
كان نفسي أعيش فوق الشجر
غنوة حياة
عصفور بيصطاد المطر
وأطلق جناحي لمنتهاه
كان نفسي أتحدى الحياة
ولا انتهيش
كان نفسي أعيش)

الصحراء هى الصحراء .. ممتدة المدى ..!

---

* شعر الصديق إبراهيم حامد قصيدة استوحاها من القصة واسماها بنفس العنوان .

مع طلوع الصبح تصحو ذرات الرمل ، تـهمس في أذن الولد النائم تحت سقيفة الجريد بزقزقة أفراخ السمان ..يفرك عينيه الناعستين ، يطير إلى سعف النخيل المتمايل برياح الخماسين .. يقبض حبات الرمل بكفيه.. يبدرها في الهواء ...

ـ يا حبات الرمل كوني ..

تهتز الأرض بأشجار النخل والزيتون الزيتون .. يتساقط (خميم) البلح فوق الشباك المنصوبة للعصافير واليمام وأفراخ السمان القادمة من ناحية البحيرة .

الولد يهوى الصيد عن أبيه وجده .. فرح حين رأى السماء مليئة بالغيوم ، حنين ما يجذ به للماء ..

زعق على أولاد عمومته ، فخرجوا يهيصون لقطرات المطر المتناثرة ، مدوا أيديهم يمسكون حبات المطر الكبيرة.

أشار عليهم بحفر حوض كبير يشبه البحيرة ، يتصل بقناة ظهرت فوق التبة العالية.

زاد الماء وارتفع حتى كاد أن يخفي ملابس العيال الذين يحفرون في همة .. فرحين بالفكرة الجهنمية.. لحظات مرت .. أصبح الرمل بحيرة ، تعالت الضحكات والهيصة من الأفواه .. غنت الأمهات للنهر .. حلمن بمراكب أزاوجهن ، تعود محملة بالبوري والدنيس ، ترسو في البركة الكبيرة على أبواب القرية الغارقة .

عندما علت المياه الصدور .. اعتدلت (الفلايك) وركب مَنْ في العشش ، الأمهات وعواجيز القرية .. والعيال الذين هدهم التعب ناموا جثثا هامدة لا يشعرون بالماء يخر عليهم من السقف السماوي .

الولد نادى في المركب الواقفة أمام الدار .. فاعتدلت وجاءته بأمه وأخواته والجدة.

حمل معه أغنامه ويمامه وعصفوراً وزوجين من السمان ، حصيلة صيد الشبكة المنصوبة ، وخر تعبا ينعم بدفء رشرشة الماء على جسده الضعيف المصبوغ بسمرة شمس الصيف..

يتقلب على جنبيه ذات اليمين وذات الشمال في جوال الخيش منتشيا بالنعاس .. ما قام به وأولاد عمومته من صيد المطر جعله يحلم بالصحراء الممتدة وقد اكتست بالخضرة _ هي الجنة لا محالة _ في الليل الذي هو للسكينة .. غيض الماء واستوت الأرض برملها ، ونادى من نادى .. :-

_ يا بن الناس قم .

فاستيقظ الولد وجرى ناحية التبة ، هناك .. حيث وجد العيال يحفرون في كومة الرمال التي جرفها السيل ، فراح يحفر معهم بحثا عن المياه ، بينما الشمس تغازل وجهه المبتل بالعرق.

التكعيبة

قلت لجدي في دهشة بعد أن قطع فروع العنباية الفيومي الكبيرة ، وجلس يقلم العقل ، يبريها مثل سيدنا عندما يقوم ببرى أقلام البوص ، ويتمتم بتعاويذ وأدعيه منبها على أبى ألا يدهس في قاع الخط ....:

_ هل من الممكن أن تنبت يا جد ..؟!

تفرس وجهي بتكشيرة بدت واضحة على سمرته التي خلفتها الشمس منشغلا في استكمال ما بدأه على نغمات مواله ..

(يا زارعين العنب وارموا كنا بيشى
زرعت لك العنب ري الطرابيشي
يا ساقية دوري يمين وشمال

وأسقى العنب والخوخ والرمان ..)

وقفت مترقبا أبى المنكفئ كما لو كان راكعا في الصلاة ، يعمل في صمت ، وعرفت بخبرة المشاهد أن الشتلات لا تزرع إلا مع بداية شهر أمشير استعداداً لفصل الربيع ، تكتسي أشجار التوت والمشمش بالأوراق ، وجدي قد أهتم ببناء هذه التكعيبة ليرتاح في ظلالها ويأكل من ثمارها ، كما يقوم بتطعيم أشجار اللوز بالخوخ فيزيد الإنتاج .

لكن هل من المعقول أن تنبت هذه العصي ، سبحانه في ملكه ، يخرج الحي من الميت ويخرج من الميت الحي .

***

بمرور الأيام ، وتحت الملاحظة المستمرة ونصائح جدي المتكررة بالري المنتظم وعدم التغريق ، والحفاظ على درجة الرطوبة ، ظهرت على العقل

المغروسة في الأرض " بـذوذ " مائلـة للخضـرة ، كـبرت بسرعة إلى براعم امتـدت فروعًـا تكسـوها أوراق كبـيرة متسلقة التكعيبة الخشب ، وأطلت عناقيد بـين الأوراق تشبه حبات مسبحة نور الصباح التي جاءت لجدي مـن الحجاز في ضـوء الشـمس ، غـردت البلابـل ، وزقزقـت العصافير فـوق ذكر النخيل الواقف في كبريـاء يطـاول عنان السماء تطل مـن قلبه اكـواز اللقاح بلونها البـني الداكن ..

***

بموت جدي أهملت التكعيبة ، وتصارع أعمـامي علـى قسـمة الميراث وجفت فروع العنب حتـى مـاتت العنبايـة الفيومـي الأم ، وسـكنتها الفـئران والوطـاويط والبوم ، وكلما مررت عليها انقبض قلبي خوفاً ، في الليل دبرت مكيـدة لعمـى عـوض الـذي أصبحـت مـن نصيبـه وتركها خاوية علـى عروشـها ، عقـدت العـزم مـع أخـي

محمود على حرقها وجئنا بأكوام قش الأرز متسللين إليها وأشعلنا فيها النار وسمعنا صرخات تشق سواد الليل .

***

في الصباح سمعت عمي عوض يحمد الله أنه استراح منها. لكننا قد عزمنا أنا ومحمود على بناء التكعيبة أمام الدار ، جئنا بالشتلات وزرعناها ، وبعد أيام انشرح صدري لرؤية الأوراق الصغيرة ، وترحمت على جدي ، وقرأت على روحه الفاتحة .

مـــاء وطــين

" وجعلنا من الماء كل شئ حي"

صدق الله العظيم

(١)

لما أمطرت السماء ، أسرعت الخطوات المتلكئة، وهرول الباعة الجائلون لجمع بضاعتهم المفروشة على الرصيف ، فزع السائرون ولاذ من لاذ بجانب أسوار العمارات القاتمة من اثر طبقات الغبار المتراكم على واجهات لافتات الإعلانات وحواف النوافذ ، حتى تهدأ قطرات الرذاذ إلا أن الزخات اشتدت مكونة بركة وحل على الأسفلت ، ذعر الناس متخفين في ملابسهم المبللة، وخاف الرجل الواقف اسفل (البلكونة) على ولده الذي يحمل فوق ظهره حقيبة مدرسية ، ضمه لصدره ودعا ناظرا للسماوات ... :

ـ يا رب ارفع غضبك عنا ، واسترها يا كريم ..!
ووقعت عيناه على الفتاة السائرة على جانب الطريق تتبختر في فستان شبه عارية تلاحقها العيون الجاحظة ، فانفلت صوت من الحشود الواقفة ..:
ـ أغثنا يا مغيث ..!
تأوه شاب في مقتبل العمر ، وزفر زفرة متأججة بالرغبة ..:
ـ الرحمة يا عالم ، نحن بشر ..!

(٢)

مع ازدياد زخات المطر ، تكاثفت الغيوم مخلفة عتمة غشت الواقفين ، رعد البرق ، وفاضت أنهار الدنيا بسيل روى الأرض العطشى ، تراقصت أعواد القمح والبرسيم ، وتفتحت عيون نوار الفول ، وانفجرت أسارير خيال المآته الواقف فاردا ذراعيه فرحا بالماء همس للبراعم ، فأطلت سنبلات خضر ..

وما أن شعر الفلاح بطرقات الماء على باب الدار حتى خرج من غمه لندرة الغوث ، وذبول الزرع ، مستنشقا رائحة التراب المندى بالماء الرطب ، اشتدت الزخات مع عزمه على الخروج فنهاه ولده ابن المدارس عن السير في هذا الجو العصيب خوفا على صحته ، مع إصراره اصطحبه متأبطا ذراعه قال .. :-

يا بنى استبشر خيرا ، في الماء الطهارة من الدنس والنجاة من المعاصي ، فلا تبالِ بما يقول رجل المدينة ، واهنأ بما نحن فيه من خير أعطاه الله لنا من حياة طيبة .

احتضنه محتميا بشجر الكازوارين قائلا ..:

_ وفيها الهلاك والطوفان يا أبتِ ..!

واحتموا من السيل في جذع شجرة كانت الطيور قد اتخذتها ملجأ لها ..

(٣)

لما سكتت السماء عن سح الدمعات ، تفتحت حدقاتها المغشية بالظلمة ، وهدأت العواصف ، وكشفت الشمس بنورها الدنيا ، تحركت الأقدام الساكنة فوق الرصيف ، غاصت الخطى في برك الطمي ، واغتسلت أوراق شجر الزينة من عادم الدخان والأتربة ، وكشفت العمارات عن ألوانها الزاهية ، فأمسك الرجل ابن المدينة بيد ولده خوفاً عليه من التزحلق وقال منبهاً .. :

ـ على أقل من مهلك .. ، هونها يا معين على هذا الوحل ..!

واندس في قلب الشارع بين السيارات والزحام الذي بدأ يتفكك رويدا رويدا ...

(٤)

طلعت الشمس ، وطارت العصافير تحلق في الفضاء الرحب ، ازينت الغيطان وزهزهت بخضرة حريرية بدت

كموجات متلاحقة على حقول القمح والبرسيم بهبوب نسمة هواء دافئة أنعشت الولد ابن القرية الواقف جـوار أبيه ينظر للخضرة الممتدة على مرمى البصر وقال .. :

_ الآن عرفت سر الحياة يا أبتِ ..!

وارتمى في حضنه ، غاص في صدره وعيناه ترقب الفراشات البيضاء الخارجة من نوار الفول محلقة في الفضاء.

حكايات قديمة

١ - أنكرتني بيوت القرية

٢- اللعبة المستمرة

٣- المطارد

٤- حصان خشب

أنكـرتني بيـوت القـريـة

أحب الريف بكل ما فيه ، زمن بعيد لم أذهب إلى بلدتنا ، حنين يتملكني كلما شعرت بالضيق أهرب إلى هناك ، اغتسل بين أحضان الطبيعة الساحرة .. إلا أن جفاء الأعمام ، وانشغالهم بأحوال الدنيا ، جعل الروابط العائلية تشوبها بعض الحزازات الكامنة في النفوس ، بعدما توفى جدي ، والصراع على الميراث أما جدتي المسكينة لا ناقة لها ولا جمل ، تنتقل من دار عمى (حسان) إلى داري عمى (عاشور) إلى أن يرسو بها المطاف ، وتقيم مع عمى (قاسم) أصغرهم الذي ترتاح مع زوجته ، ودائما ما كان أبى يستجديها أن تأتي وتعيش معنا لكن ترفض بحجة أن عيشة البندر صعبه.. في

مثل هذه الأيام مع أوائل فصل الربيع كنت اجمع العيال ونتسلق أشجار التوت فنأكل حتى نشبع وبالذات من التو ته الحمراء في مدخل القرية ، وكثيرا ما ضربتني أمي كلما عدت إليها مبقع الجلباب .. انشرح صدري لرؤية الخضرة .. لكن هذه البيوت المشيدة في قلب الغيطان جعلتني متحيرا لقد كان آخر العمار الجرن الكبير عند كوبري (الميزانية) حيث ينتصب السوق كل يوم سبت ، وفى موسم الحصاد يستخدمه الأهالي للدرس ، وأقوم بتنقية حبات الفول المتناثرة أثناء التذرية وفى الدار "اقليه" واضعا عليه الماء والملح فيصبح " عميصه " تفتح النفس ، ياه سنوات مضت منذ تُوفِّيت الجدة وانقطعت صلتنا بالبلدة .. لقد ابتلعت الكتلة السكنية الجرن .. كم هى قاسية تلك المدينة التي قضت على براءة الريف ..

وهناك حيث الأبراج الطينية التي ما زالت قائمة كنا نتسلل بالنبال وحبات الحصى الصغيرة نصيد الحمام، وننتهز غفلة أصحابه ، ندخل للأبراج متسلقين السلم الخشب ونجمع الزغاليل الصغيرة من الفتحات الفخارية.

ومكان هذه البيوت حيث كانت تقيم ساقية على رأس غيط عمى (عاشور) وصفوفا من النخل كنت أتسابق مع العيال على شتها في الصباح الباكر فأوصى جدتي أن تصحينى لصلاة الفجر مع جدي ، وأقوم من أول ندهة أخذا "المقطف" الخوص الصغير إلى الجامع وبمجرد الانتهاء من الصلاة أسرع خارجا ، وأقوم بجمع " الناروز " الأحمر والرطب الطارج .

أسلمتني قدماي المنهكة من طول المسافة بين المحطة والبلدة للشارع المؤدى إلى دار العائلة القديمة، رائحة الماضي تمتزج بدخان الخبيز المتصاعد وجدتي الجالسة أمام الفرن يحيط بها زوجات أعمامي

والخبز الطري ترصه فوق المشنة - ماهرة بنت الإيه من يومها ويضرب بشطارتها المثل بين النسوة ، تفرد الرغيف على المطرحة وتطوحه بصنعة في عين الفرن فوق " العرصة " المقدوحة بخفة يد مدربة ، وتخبز لي حنونة مرشوشة بالسكر.

يوم الخبيز يوم عيد في كل دار رغم مشقته وتعبه حيث صواني الأرز المعمر والفطير المشلتت والطواجن وفي النهاية تعمر " محلبة الدميسة " وتدفن في رماد الفرن لتنضج على صهد النار .. إيه .. أيام ..!

كل شئ يمر أمامي كما لو كان يحدث الآن بتفاصيله الدقيقة .. والدار التي باعها عمي (حسان) مستغلا انشغال الجميع وبنى داراً بالحجر في آخر البلدة، هذه الدار التي تبدو كامرأة حزينة فقدت عائلها حيث كانت ملتقى الشارد والوارد ، ومزارا للغرباء .. رحم الله جدي كان مضيافا للناس من كل الدنيا لدرجة

أن صيته يسمع عنه في كثير من البلاد والعزب المجاورة، يأتي إليه من أصابته علة أو مسه جان ، يعمل الاحجبة ويفك المربوط ، ويعيد الزوج لزوجته ، أحيانا أخرى أراه طبيبا مداويا بما عجز عنه الطب ، يصف الوصفة للمريض أو يعطيه " حُقْ " من دواء صنعه بنفسه من تركيبة الأعشاب التي يشتريها من عند العطارين كلما نزل البندر، يقوم بخلط التركيبة الخاصة بكل دواء بطريقة مبتكرة في حجرته الخاصة والمحرم علينا دخولها مستعينا بـ " تذكرة داود " أو " شمس المعارف الكبرى " أو " الطب النبوي " ويكون في يده الشفاء بإذن الله .. ترى أين ذهبت هذه الكتب ..؟! جازاك الله يا عمي لم تقدر قيمة ما تركه من كتب لا يعرف قيمتها إلا ذووا العلم، وأنت لجهلك أفقدتنا ما ورثه جدي عن أبيه ..!!

وجدي الذي كان طبيبا لكل داء يقوم بتجبير من كسرت ساقه أو ذراعه بمهارة مما جعله ذائع الصيت

في البر كله ولشدة إعجابي به صممت أن أصبح طبيبا ، امتهن مهنته عن دراسة وعلم أفيد به قريتي وأهلي والآن صرت متخصصا في أمراض الباطنة ، وبعد قضاء مدة الامتياز طلبت عن رغبة العمل في المستشفى القروي لقد أشفق عليّ الأصدقاء لبعد المسافة عن المدينة ظنا منهم عدم معرفتي لهذه القرية لكن هذه رغبتي منذ التحقت بكلية الطب وفاءا لعهدي مع أبى الذي دائما ما يذكرني بمقولته ..:

ـ اللي ما لوش خير في أهله ليس له خير في الناس ..

مررت بالناس الجالسين على مقهى انشىء في قلب القرية حاملا حقائبي دون أن يستوقفني أحد ، وتعجبت لقد أنكرتني بيوت القرية ، وأهلها ، وصدقت أمي حين قالت ..:

ـ إن الناس حالها تغير ولا أحد يعرف أحد في هذا الزمن الغريب ..!؟؟

ألهذا الحد تطبعت القرية بطباع المدينة ، الكل أغراب ..؟ ما أشقاني في هذه البلدة ..!!

عند دارنا القائمة في شرق البلدة والتي هجرناها منذ سنوات للمدينة نتيجة لظروف عمل والدي في المركز ، مازالت هى الوحيدة التي تحتفظ بطرازها المعماري القديم من الطين والسقف المعرش بحطب الذرة وقش الأرز ، لقد تقزمت بجوار العمارات العالية التي ارتفعت بجوارها ، أهل القرية جميعهم هدموا الدور الطينية وبنوا بالطوب الأحمر والإسمنت ، هذه أثار الهجرة لبلاد النفط حتى الذين لم يسافروا باعوا ما حيلتهم من قراريط وبنوا مقلدين غيرهم ..! يـالبشاعة هذه البيوت وخراب منظر القرية الجميل بكل ما تحمله من سحر وهدوء ، كأني هربت من مدينة أعرفها لمدينة لا أعرفها..!

دلفت للداخل مستسلما للفراش ، أستريح من عناء السفر ، وطول المشوار الذي قطعته سائرا رغم اتصالي بأبناء عمومتي ومعرفتهم بقدومي إلا أنهم تجاهلوني ، كنت أظن أنهم سوف ينتظرونني على المحطة ، لكن لا أحد حتى من أبناء عماتي انتظرني أو جاء ونظف الدار وهواها ، تمددت مسترخيا أفكر فيما حدث لقريتنا من تطور قضى عليها ، وطبعها بهذه الطباع التي هربت منها على أمل السكينة والهدوء ، لكن إلى الآن ما رأيته لا يبشر بخير .

خالتي (حسنيه) أخذتني من يدي ، وهربنا من أمي التي توعدتها بالضرب لأنها منذ يومين رمت التفل الباقي من عصر الكسبرة وفول " البصارة " المملح للكتاكيت فانتفخت الحواصل ، وانتشرت الفرة وعدوى عين الحسد كومتهم ريشا في الزريبة.

وحين حضرت أمي من السوق هفهفت رائحة الطعمية والعيش الخاص ، وحكيت لها ما حدث بالحرف، وجلست أمامها ملهيا في حلاوة البوظة متناسيا وعدى ألا أفتن عليها.

واليوم العيد الصغير قررت الهرب في غفلة الجميع ، آخذة كل فلوس العيدية قائلة أنها سوف تريني

الحاوي الذي يبلع النار ، ويعزم على البيضة فتفقس كتكوتاً في الحال ، ورجل يغلب السبع ، وشوارع كبيرة تجرى فيها العربات الملونة .

بمكرها ضحكت على بعد أن قالت ..:

ـ عارفه أنك بتحب المراجيح ، هناك سوف أركبك دوارية بتلف فيها أحصنة وعربات خشب على نقرة الطبلة والصاجات .

وطرت على الطريق الطويل ، قابلتني زعابيب ردمت هدومي الجديدة ، وفرت الدمعة من عيني الموجوعة بالرمد الربيعي ، أمي لو شافتني سوف تضربني بالعصا الجريد لأني أفسدت ما فعلته من وصفات وفي الصباح وضعت فيها " ششم " من حك المحارة بالحصى ، قلت بعد أن جلست استريح من المشوار تحت شجرة توت على شط الترعة ...:

ـ رجلي وجعتني يا خاله ..!

طبطبت على ظهري ، وغطاني ريش الحمام الأبيض ، والورد الأحمر المرسوم فوق جلبابها الكستور..:

_ خلاص قربنا يا عيني ..!

وأعطتني قطعة سكر نبات من ورقة أخرجتها من صدرها، كانت قد اشترته من الرجل الذي يمر في الشوارع بقرش صاغ .

فرحت بعدما أخبرتني أننا في طريقنا لدار ستى في البندر وقلت أن شافتنى ستفرح والدنيا لن تسعها ، وتأتيني بالملبس والهريسة المعتبرة التي تحضرها كلما زارتنا في القرية في المواسم والأعياد ، وكنت أحنس العيال باللعب التي يرسلها خالي (حسن) الذي أسموني على اسمه ، ويحبني ويخاف على من ركوب الحمير حتى لا أقع ويكسر ذراعي مثل أخي (حامد) الكبير ، فاشترى لي حصان خشب .. آه لو هنا لركبته ، أكيد

يعرف السكة لدار ستى أم حسن كان وصلني على طول في غمضه عين .

***

دخنت الدنيا ... الشمس البعيدة احمرت وقربت من الأرض .. ومر أتوبيس الشركة بميعاد آخر النهار ، السكة الطويلة تعفرت ، والغيطان اختفت ، كلبشت في يد خالتي (حسنيه) بنت الجنيه المعجونة بماء العفاريت ، تزك على رجلها العرجاء ، وتحجل على السليمة في سرعة الفرس الرهوان ، كثيرا ما لعبت (الحجلة) وغلبت البنات. فجأة نبح علينا كلب أغبش ، شعرت برعشة أغرقت جزئي السفلي عندما فكت يدها وجرت ، تسمرت مكاني سجرأ على خوفي ، وملت على طوبة قذفتها في وجهه ، صرخ من قوة الضربة وفر إلى قلب الزرع.

***

ظهرت من بعيد نقط الضوء مثل النجوم في السماء فأسرعت الخطوات ناحية دار الونس ، وحملتني خالتي وأنفاسها تنهج من التعب ..:

_ عارفه يا روحي أنك تعبت ..!

وأعطتني قطعة أخرى من سكر النبات غيرت طعم فمي وذاب التعب في حلاوتها ، وغرقنا في نور العمدان ، رحت ابص للدور العالية ، والمراجيح التي تعلو قواديسها وتهبط والدواريات تلف وتدور ، وعيال كثيرة في ملابسهم الجديدة تهيص والشوارع مزدحمة بصفوف العربات.

فاحت رائحة البول من جلبابي المتسخة ، ومسحت في كمي الدموع التي سالت من عيني الوارمتين بحريق شطه العفار.

***

على عتبة الدار دخلت خالتي ، اتبعتها متخفيا وراءها ، عند رؤيتها ستى بكت بحرقة من لدغتها عقربه ، وما أن وقعت عين ستى على حتى شهقت ضاربة صدرها..:

_ يالهوتى .. الشر بره وبعيد .. إيه اللي حصل يا بت ..؟! أختك جرى لها حاجه ..؟! أنطقي .. ردى ردت الميه في زورك ..!

نهنهت ، وزاد بكاؤها وقالت :

_ أختي عايزه تضربني يامه وهربت منها ..!

انقلبت الدنيا ، وتجمع ناس كثيرة لا أعرفهم ، وخالتي التي انفتحت في البكاء لا تريد أن تسكت ، صوتها المزعج إلا أن ستى أدركت الموقف وقالت لخالي حسان ..:

_ زمان الدنيا مقلوبة ، عليهم في البلد ولابد أن تسافر حالا وتطمئنهم بأي وسيلة ..

غمغم ورطن بكلمات غير مفهومة وقام منفذا للأمر

فعصت عيني ، ووقفت وحدي أبكي ، لكن خالتي (سهير) تنبهت لوجودي ، وأخذتني لتحميني ، وتغير هدومي المبتلة ...:

_ يا كبدى تلاقيك على لحم بطنك من الصبح ..!

بدات الرعشة التي أصابتني تختفي في دفء الفراش ، ووضعت رأسي على رجل ستى كما تفعل أمي وأصابعها تنبش في شعري ، وبدأت نقط القطرة تغسل غشاوة الظلمة بزغلله نور الكهرباء ، وطارت بالونات العيد، ولفت دوارية النوم فوق الحصان الخشب الذي دبت فيه الحياة ، استقبل أمي الواقفة على عتبة الدار وتنادني ، إلا أن الحصان فرد جناحيه وطار بعيدا إلى السماء.

المطـارد

اسـحب خطواتـي متثـاقلا .. الطريـق طويـل والمارة يسرعون والأرصفة لم تعـد مـأوى للمتسـولين .. الهموم تعلقت في الرقاب لا أحد يعرف أحد .. الزحام .. الضوضاء .. العربات والصداع يطرق في رأسي .. أحس بها تنشق نصفين .. الأسفلت يشع حرارة .. العرق يمتزج برائحة الصمت العفنة .. والسيارة مسرعة نحوى بجنون .. ارتبكت .. دارت الدنيا .. اختلطت الأشياء - وقعت ... زحـام شـديد حـولي .. ضـاقت أنفاسـي .. والوجـوه تنهشني..:

_ كيف حالك ..؟! لم أفهم ماذا يقصدون ..؟!

وقال صوت خافت :

ـ يبدو انه غريب عن البلاد .. ملامحه تدل على ذلك .

الوجوه صفراء باهته .. وعلامات الاستفهام تجرى هنا وهناك ..؟!

ـ ما اسمك ..؟!

ـ ممنوع من الصرف ..!

تطايرت ضحكات سخرية من أفواه الواقفين .. البعض يتمتم باستهزاء أعادوا أسئلتهم المرة ..:

ـ من أي البلاد ..؟

لا أدرى .. سكنت الخرابات مع الخفافيش والكلاب الضالة ، نتقاسم فتات الخبز العفن .. آلفة الدم ورائحة الموت ، ترعرعت في أحضان البندقية والرشاش وبقايا عظام أبوي .

***

نظروا إلى بعضهم .. الخوف .. الفزع والتقزز .. يطرقون الكؤوس المملئة برائحة التبلد والذهول في

تلذذ واستجمام يمضغون الكلام .. يتضرسون بأسنانهم ويجترون الحروف :

_ طردوك من بلدك ..؟!

تنهدت بشدة .. بلعت ريقي .. اشتعلت نيران الغيظ في صدري .

_ نحن لهم بالمرصاد حتى يعترفوا بالحق ..! تقطعت الكلمات في فمي !!

نظروا إلى بعضهم .. يتغامزون .. كونوا جملة من الثرثرة...:

_ ماذا فعلت لطردهم لك ..؟!

أحسست برعشة .. استجمعت قواي .. اختلطت الصور ..

***

الليل عشش في شوارع المدينة الخالية .. الناس لبدوا في بيوتهم طائعين للأمر المعلق على الحوائط " ممنوع التجوال ..! "

تلصصت محاولا الصيد منهم متحصنا بالظلام ..

ارتفع صوتٌ خدشَ الصمت :

_ قف .

عبثا حاولت الهرب .. تساقط الرصاص مطرا حولي .. حاصروني ، مصوبين بنادقهم في وجهي ..:

_ وجهك للحائط وارفع يديك ..!

ركلوني بالأقدام ... انهالوا على بالعصي والسنكى في ظهري .. لم أقاوم وجهوا لي الاتهام ...:

"التخريب والتآمر على السلطة."

مصمصت الشفاه .. تسلل صوت إلى أذني .. :

_ أولاد الكلاب ..!

... القوني في زنزانة الرطوبة تلبد فيها .. رائحة النجاسة.. العنكبوت الموجات الكهربائية .. خلع الملابس .. الكلاب الشرسة .. الجنس ... المخدرات كل

الأساليب للاعتراف .. حفرت على الجدران بأظافري "
فداك وطني ، نموت وتحيا "

أعادوا كل الحيل لأعترف .. ضحكت بصوت
مرتفع متصنعا الجنون و ...:

_ وماذا بعد ذلك ..؟!

أشباحهم تطاردني في كل البلاد التي ذهبت إليها
لأعرض قضيتنا

***

خلف القضبان أوقفوني للمحاكمة وراحوا
يطرحون أسئلتهم البالية ...:

_ ما اسمك ..؟

_ ممنوع من الصرف ..!

_ رقم هويتك ..؟

_ تحت الصفر أو أن شئتم قولوا مسلوب الهوية ..!

_ أقوالك فيما نسب إليك ..؟

ـ مظلوم .

تداولوا الأمر فيما بينهم .. سادت لغة الهمس ..
غيم صوت على المكان وتساقط ...:
(بعد تداول الآراء تبين أن المتهم برئ مما نسب إليه ، وعلى ذلك قررنا طرده من البلاد لعدم ثبوت أحقيته فى الإقامة ..!)
اقتربوا منى وقالوا .. :
ـ هكذا على طول ..؟!
ـ والمصيبة يريدون إثبات منه ليعيش في أرضه ووطنه .!!

***

تشدقوا بما سمعوا ولعنوا كل جبار على الأرض ،
قال رجل ..:
ـ حرام .. والله العظيم ظلم ..!
ازداد الزحام .. الضوضاء – والثرثرة ..:
ـ نحن معكم .. القضية قضيتنا جميعا ..!

كثر القيل والقال .. اختَلفوا فيما بينهم وانقسموا إلى فرق ..:

ـ الحكم للسلاح ، ما أخذ بالقوة يسترد بالقوة .

ـ السلام افضل .

ـ صدقوني هم ليسوا دعاة سلام ..الخونة على مر العصور لم يسلم منهم أحد ، يغتصبون الحقوق من أصحابها في عز النهار.

اختلفوا فيما بينهم ، كلٌ واحدٍ متمسك برأيه ، تفرقوا في غضبٍ ، موجهين تهمة الخيانة إلى بعضهم .. شربت من الصمت حتى الثمالة .. وأسرعت وأنا في دهشة من أمرهم محاولا الهروب من بينهم .. بعد أن ساد الدمار والدخان ابتلع المدينة وصوت المدافع يهز الكون ..!! ورحت اردد في سخرية وألعن شبح الحرب الذي يطاردني ..:

ـ هه .. تقفون معنا .. كيف ..؟!!

وعيني على نقطة الضوء البعيدة التي تحاول عبثا غسل السماء المظلمة

اللعبة المستمرة

(اضرب عدوك بي .. فأنت الآن حرٌ وحر
فاضرب بها .. اضرب عدوك .. لا مفر
حاصر حصارك بالجنون
وبالجنون
وبالجنون
ذهب الذين تحبهم ، ذهبوا
فإما أن تكون
أو لا تكون ..)

من قصيدة مديح الظل العالي للشاعر محمود درويش

مدخـــــل :

تم الاتفـاق وخرجنـا .. شـوارع المدينـة خاليـة وقفوا يتلصصـون كاشفين عـن أنيابهم - متأهبين - مـن يعصـى الأمـر ويخـرج يكـون الفريسـة ..!! لكننـا خرجنـا لنلعب لعبتنا المفضلة لا (العسكر والحرامى) .

سألني أخي ابن الخامسة بعد أن ضاق باللعبة ..:

_ لا يوجد لعبة غيرها ..؟!!

هناك الكثير .. ولكـن المهم أن نختار الصالحة في هذه الظروف

_ إذن لماذا لا نلعب غيرها ..؟!!

_ لأنها تناسبهم ..

_ وهل يفرضون علينا اللعب أيضا .؟؟

_ لا .. لكننا اخترناها ..!

تبادر إلى ذهني لعبة قديمة .. كنت أرى أخي الأكـبر يلعبـها وأطفـال المدينـة .. يصنعـون مـن سـعف

النخيـل " مقـاليع " يضعـون بـها الأحجـار ويرمـون بـها الذئاب .. ولكنهم غدروا به وأحلوا لحمـه .. شربوا دمه ، وكل من يحاول معهم يقتلونه ..!

صاح الأطفال .. :

_ ماذا نلعب ..؟؟!

شرحت لهم قواعـد اللعبـة .. فرحـوا .. وراحـوا يعدون العدة ، يجهزون ما تتطلبه اللعبة .

***

بعد لحظات .. مر جمع منهم يدكون ما يواجههم .. خفنا .. اختفينا عن أنظارهم .. مـروا .... .. عدنا نكمل المهمة .. تعثرت قدماي بالأرض .. تحققت .. صديقـي غارقا في دمه .. قتلوه .. ازداد لهيب النـار في صدري .. الأبدان متناثرة في الشارع ..

الدخان القاتم نسج ثوبا ألبسه المدينة .. مرقت ببصـري إلى اللافتـة وجـدت اسـم " عمـر المختـار " ..

تذكرت أبي والحكايات التي كان يرويها عنه .. فقد وقف في وجه الطغاة قال.. :

_ لا .. لم يخف .. دافع عن الوطن ..

تراءت أمامي " أمي " تصرخ حين جروها من ذراعيها ، كشفوا عورتها .. قتلوها .. الدمعة التي رأيتها في عينيها مازالت تصرخ في .. اقشعر بدني .. مسحت على رأس أخي .. احتضنته ، غلى الدم في عروقي .. خفت .. يشبهون الشياطين .. تنهدت بشدة .. صرخت (أمي .. أبي .. أخي انتم في دمى ، تكويني منكم ، لكن لحمى لحمنا جميعا مر ..).

شدني أخي من ذراعي ، تنبهت على صوته .. :

_ لماذا تبكى ..؟!

مسحت دموعي .. ونظرت إليه مصطنعا ابتسامه .. قال :

_ لماذا يقاتلوننا ..؟!

_ يريدون اغتصاب مدينتنا.

_ لماذا ..؟!

_ يدعون أنها ملك لهم.

_ حقا ..؟!

مددت يدي على حفنة من التراب ..:

_ شم رائحتها .. رائحتك ورائحتي ، رائحة أبيك وأمك ذراتها من جسد الأجداد .. ستظل لعبتنا معهم مستمرة حتى يرحلوا ..) تنبهت على صوت الصبية ينادون.(على، نضال) كانوا قد اعدوا أكواما من الحجارة .. توحدنا .. تكاتفنا .. تأهبنا .. قررنا أن نلعب هذه المرة بإحكام .

***

بدايـــة :

ظهروا يجرون عجلا تهم الحربية يدهسون أبدان الموتى المتناثرة .. تأهبنا .. اقتربوا .. فزعنا بادئ الأمر ، تمالكنا رجمناهم ، ضحكوا ساخرين .. سقط منهم

البعض، تنبهوا إلى نافورات الـدم التي تفجـرت حولهـم، سعروا.. راحوا يصطادون منا ونصطاد منهم.
ازداد الاشتباك .. تلاحمنـا معـهم .. واجـهناهم عـازمين على إخراجهم من أرضنا

فقد قررنا أن نسعر مثلهم.

فرقع لوز

قهقه الحاضرون وصفقوا حتى أنت أيديهم النشوة بالنكات السخيفة ، التي يلقيها المهرج في المجلس ..مستغلا غياب أهل أهل الدار ..

جلس الأمير على كرسيه متباهيا بقوته وجبروته في إمارته التي اعتلى عرشها بحيلة لم يسبق لها مثيل تمكن من اكتشاف نقاط الضعف الساكن في نفوس من حوله ..

قعد على عرش إمارته متحديا الكبار والصغار من الصراصير مما جعل " أبونطيط " يتحنجل للوصول إليه ليجود عليه من عطاياه وأبو " دقيق " يتقرب للبلاط

العالي ، وفرقع لوز يعلن الولاء والطاعة .. حتى اتخذه الأمير مهرجا للبلاط ، يرفه عنه في أوقات الضيق وقد يشيره في بعض الأمور التي تستعصي على فكره .. مما اكسبه مكانة بدت لأصحاب النفوس الضعيفة .. يهابونه ويقولون لأنفسهم ..(يا ليت لنا ما لفرقع لوز عند الأمير .!)

علا الصخب والضجيج هلل الملتفون حول لمبة النيون ، خروا مستلقين على ظهورهم بنوبة الضحك الهستيرية التي انتابت المجلس واستلقى الأمير على ظهره ، فاتحا فمه عن آخره ، كاشفا عن مغارة مظلمة وعينين لامعتين في الظلام ..

بينما فرقع لوز واقفا يدلي بدلوه من نكات ابتكرها وراح يلقيها على الحضور .. مدعيا أنها من وحي خياله ، يلقيها في جميع المناسبات حتى زام الحضور بتأففات وضاقوا - بما يسمعون وحين ينتهي يصفقون بشدة ماسحين الجوخ - وتخرج من تحت أضراسهم ..:

_ الله قول كمان يا فرقع لوز.

استلقى على ظهره بعد أن أذن له الصرصار بأخذ راحته في مجلسه واضعا رجله اليمنى فوق اليسرى ..:

_ بذمتكم سمعتم حد قال الكلام ده قبل كده ..!!

أقسموا الأيمان وحلفوا أنه لم يخلق واحد على ظهر الأرض يباريه في فصاحته ونباغته انه فلته من فلتات العصر قد لا تتكرر وينتظره مستقبل باهر - كلام في سرك قد تواتيه الفرصة ويضحك على الصرصار ينزله من قلعته بعد مجلس أنس غرقا في شراب العنب المعتق وراقصة محنكة تيسر الأمور أخرجها من البالوعة ، ألبسها وصنفرها دربها بنظرة رمش تفتح الأبواب المغلقة التي لا يقوى عليها شمشون الجبار نفسه ...

ما عليها إلا أن تغمز بطرف عين وحاجب يذيب جبال الثلج المتراكم على (الفريزر) فيغرق في شبر ماء وقد يستدعي الأمر تلعيب قدها المياس وعض شفتيها

الفراولة بآهة تسطل المتفرجين تنسيهم بطش الأمير وأعوانه وما يعانونه من كبت يجعلهم يزمجرون كلما أفاقوا من مخدر اللهو والطرب ..

بينما الأمير غارق في لياليه الحمراء لا يشعر بما يدور حوله من مؤامرات يدبرها المهرج ، حتى أجلسه وراح يلقى النكات في مجلس الأنس والطرب يروح عن الأمير الذي تكر شت بطنه من الشراب والمز من حبات الفاكهة المرصوصة في الطبق على رف الثلاجة وما إن رأته ست الدار حتى فزعت ..:

_ صرصار - صرصار !!

لم يتحرك من فوق عنقود العنب مسبل العينين متراخ الجسد المنهك.. فر من حوله عند استشعارهم بالخطر ويد الولد الصغير تهوى عليه (بالشبشب) هال الصراصير الفارة منظر الأمير المحتضر .. فزعوا ودبت الشجاعة فى عروق أحدهم فلاقى حتفه .

فر أعوان الأمير مؤثرين النفاد بجلودهم عن الدفاع عن أرض الإمارة بينما فرقع لوز تجرأ على جبنه ونط وقفز بحركة بهلوانية في الهواء فرحا بالعرش.

خلا الكرسي فاعتلاه منصبا نفسه أميرا .. جلس وحده يحيطه الصمت والبرودة .. ارتعش ولبد في طبق الفاكهة حين شعر بأصابع الولد تلمس جسده نط وقفز بكل قوته من القلعة مؤثرا الفرار.

طار للسماء

(إلى روح نبيه الصعيدي)

دائما ما كنت أراه منكبا على نفسه ، ممتطيا جواد حلمه بعد أن دلف من باب الريح .

حاول أن يبوح للمدينة كل صباح ومساء بما يدور بخاطره من حكايات ابتدعها في الصغر لصبيان القرية .

راح يقص عليهم أحاديث وحكايات أنباء ما قد سلف ، وما هو آت .. مستمدا أقاصيصه من ألف ليلة وليلة

ولما فاضت انهار الكلام بقصص الدنيا ، وسوس ابن النار لابن الماء والطين ، وتعالى عليه ، أنكره ، وأشاع عنه أحاديث ملفقة تتهمه باختلال العقل ، ومس الجنون.

دخل لشارع المعقول ، فتجمع حوله الناس. إلا انه عزم عليهم فانفضوا .. تركوه وحيدا في خلوته مع أوراقه وعلب السجائر ، استدعاه الرجل الذي يهابه العباد ، فاقشعر بدنه ، وناء بجانب الصمت ، تدبر في خشوع ناظرا لريش الشجر المتدلي فوق أكوام البشر النائمة على الأسفلت ، ناحت يمامات القرية فأغرقت السماء البحر بدخان السحاب.

ولما ركب الريح ، لاحت في الأفق طيور الفضة ، وارتعشت يده القابضة على يدي ، تجمدت شرايين الروح ، وتوارت الشمس خلف نقاب الحزن ، وسرت قشعريرة في البدن المتوتر لم تنفع معه المهدئات والعقاقير الطبية.

دق بندول الساعة في صدري ، تبعثرت مساحيق الشمس مستنهضة قواه ، وبانت إمارات استعطاف على وجهه أثناء عبور الكوبري ، قابلته مخلوقات من البشر ،

ذات أجنحة شفافة ، أحاطوه ببردية من العشب ، سكنت ثورته بعد اغتساله في النهر ، وقال بهدوء لم اعهده ...:

_ أرجو ألا تنسوني يا أصحاب ..!!

أشار لبنت وولد وقال ..:

_ " أحمد " حمدت الله بمولده ، " وزهرة " أزهرت الدنيا لرؤيتها ..وعرفت طعم الحياة .

أطل على زحام الناس السائرين وراءه ، فأدرك وجودي بجانبه ..استشاط غضبه السريع شاخطاً في ..:

_ امشى من هنا حالا مش عايز أشوف خلقتك ...!!

وما أن تنبهت على زعيق السيارة المسرعة التي شقت الزحام الشديد حتى وجدت الذي قابله في شارع المعقول يأخذه ، محتضنه وطار للسماء ... ناديت عليه :

_ يا نبيه ..

تنبه الناس الذين يسكنون جواره لوجوده ، وحملوه على الأعناق لدارة الجديدة.

عاتب عليك يا زمن

نبــوءة

أحيانا أمنــى نفســي ، وأخــرج للمدينـة متحديـا العزلـة بحثا عـن ود مفتقـد ضـاع مـع الطبـاع الحـادة ، واللامبالاة في صنع علاقات اجتماعيـة مع النـاس ، تتيـح فرصة التعايش مع الناس.

وأسير في الفراغ ملوحـا للطيـور الرماديـة الـتي حبسـت ضـوء النهار ، وأصر علـى تحقيـق نبـوءة الهـاتف الذي جاءني قائلا ..:

ـ يا ابن الناس أنت منتكس في أصدقائك ، وسيعوضك الله برجل صالح ، يعطيك جوهرة فصنـها ، طاعتك تزيد محبتك ، أحفظها تحفظك ، واسْع تتفتح أبـواب الرزق أمامك ..

صدقت الرؤيا ، وتصدقت بسنوات مضت مرت مثقلة بالتعب والترحال .. وما إن قابلته ، ارتحت إليه ، وعاملني معاملة الأب واستأمنني وديعة وقال ..:

_ لقد اصطفيتك من دون الناس ..!

هدهدني مطبطبا على كتفي بحنان مستمدا قوة كانت قد تلاشت بمرور العمر ، جعلتني أنسى شبابي منشغلا بأمور أضفت لملامحي شيخوخة غير عادية .

جـــنـون

قال ..:

_ أنت مهيأ للجنون ..!

قلت .. :

_ وما العيب في ذلك أن يجن المحب بمحبوبه ..!!

_ مـن منـا لم يشـعر بـالحب ، النفـس تتـوق لصاحبـها ، وتتلاقى الأرواح ، ويشرب المحب مـن رحيـق المحبـوب ولهاً وهيامًا.

قال .. :

_ أحذرك ، لا تقربه ، فتشقى .

قلت ..:

_ له حلاوة تنعش الروح وتريح القلب .

قال ..:

_ أنت منذور للشقاء ، تحمل نتيجة أفعالك ، ولا تبال بكلام الناس .

قلت .. :

_ كل طائر يبحث عن وليفه .

حدثتها عبر (الموبايل) متحديا الضوضاء وصخب السيارات في الشارع ..:

- عايز أشوفك ..!

إلا أن صوت الهاتف جاءني ..:

(هذا الرقم ربما يكون مغلقا ..)

وتركني وحيدا ، أحدث الشوارع والبيوت ، تجمع الناس ، ونظرات الاستعطاف تجتاح الجسد ، والصداع يخترق رأسي ، أجرى فاردا ذراعي كعصفور يحلق في الفضاء.

بـــــراءة

كلما أحسست بعطش لرؤياها ، أجوب المدينة عن آخرها سيرا ، لخلق صدفة ، ربما تسفر عن لقاء.

ادخل الشوارع والحارات ، أناجي البيوت في شارعها الذي أنشأت معه علاقة حميمة منذ سنوات المدرسة الابتدائية ، وتوطدت ألفه مع شرفاته ، أمر على منزلها ناظرا للبلكونة في استحياء ، أتوقف مداعبا زرار الباب بالسبابة ، فتزقزق عصفورة الجرس ، وحدي اقف ناظرا للسماء ، مترقبا طلعتها .. مضطرب النبض .. وما أن تطل أنسى كل ما رتبته من حيلة تطيل الحديث بيننا أكبر مدة تتيح الاستمتاع برؤيتها .. نتبادل كلمات محددة تحكمها الروابط الأسرية ، وألمح براءة في

عينيها المكحلة بـالخجل حاضنا أمنيـة طالمـا تمنيتهـا في بناء بيت يشعرني بالسكينة ، وأواصل رحلة الحياة متناسيا متاعب الدنيا .. لكن هل تقبلـني بنـت النـاس أن أكـون فارسها..؟!

طوق الجسد

للبنت التي أراها وتراني ، ذات الرداء المزركش بالورد نبضات ، تفوح بعطش تجربة التمـني ، وهـوس يعتصر برودة الجسد النحيف.

إذا قلت مـا بي يا منية الـروح .. يشع مـن لظى الوجـد حمامات ؛ تحلـق فـوق القبـة والسـاعة ، تفرفـط أغصان الزيتون أوراق المطر من كسـوف الشـمس ، يلمع النجيل ، تتراقص البلـورات الفضيـة وأشـجار " الفيكـس " وزهرة عباد الشمس والريحان ؛ يرطـب خـدود البنفسـج ، يلتصق الجسد بذرات الشوق في عذوبة النبرات الشفافة تسبي الخجل العذري بين صديقاتها في ساحة الجامعة.

تحدث قاعات الدرس ، وهوامش الكتب.

و(طوق الحمامة) يفسر ماهية الألفة والائتلاف.

البنت أعرفها وتعرفني ، تؤنس القلب ، تميل على طي الجناح بحنين أجفان السهاد والعشق أرق النوم .

يا شهرزاد الليالي الجديدة ، ضاعت حكايات العشق في ضوضاء السيارات وحبر المطابع لطخ عناوين صحف الصباح والمساء. عرت كلام الأصدقاء بحكايات ملفقة عن زغب الجسد المطوق بالخجل الريفي .. :

_ حاول تكلمها يا أخي ..!!

ألون الكلام بمساحيق النرجس ، أغازل وجه الشمس ووردة خد الجميل فوق أعطاف حبات المانجو في الشجرة العتيقة، يتساقط الورق الأصفر من أنفاس البعاد..:

(يكاد حين تناجيكم ضمائرنا

يقضي علينا الأسى لولا تأسينا) *

يختلط النبض بدقات الساعة فوق القبة ، معلنة وعد التلاقي .

بيت الشعر من نونية ابن زيدون

نصيحة

قال لي .. :

_ لماذا تكتب عن الحزن ، دائما أشم في كلامك نبرة يأس .. الحياة حلوة .

قلت ..:

_ متعب يا ناس ، والزمن يعاملنا كما لو كنا من دنيا غير الدنيا فصدقني أنا متيم بمحبوبة لا اقدر على الوفاء بعهدي معها ، أهواها وتهواني وما باليد حيلة .

قال وهو يعظني .. :

_ اكتب عن الفرح والتفاؤل .. الحياة ليست ذات وجه واحد بها الليل والنهار ، الحزن والفرح ..!!

قلت مؤكدا .. :

ـ أستطيع أن أشعرك بالمرح بشرط أن توفر لي عيشة هنيئة لا اطلب اكثر من حقي ، وفر لي سكناً ، وعملا فقط اشعر أني إنسان له حق العيش والحياة في ابسط صورها.
قال في سخرية ..:
– أنتم جيل متواكل ، تنامون وتريدون من يطعمكم .

تفرست وجهه في غيظ وتركته جالسا فوق كرسيه رامياً زهر الطاولة فوق المنضدة ، وقهقه في كبرياء دفعت قدمي للأمام وغصت في شوارع المدينة مشتت الذهن بلا هدف .

حـــــزن

قابلني متجهماً، حدقت في وجهه .. كنت متيقناً أنه هو ، فرقتنا الحياة ، وغرقنا في متاهة البحث عن الرزق ، الكهولة كست ملامحه الطفولية رغم حداثة سنه.

وقفت مندهشـاً لرؤيـاه سـائراً في انحنـاءة يجـر قدميه في ثقل ، خطواته تستسلم لشـروده وغيبتـه عـن الوعي ، نحيفاً قصيراً ، لقد كان يتقد بالمرح ، وعذوبة اللفظ ، ابـن نكتـه كما كنا نطلـق عليـه ، يشعرنا ببهجـة الحياة وقدرته الفولاذيـة في مواجهـة أصعب المشكلات ببساطة .

تيقنت منه مع اقترابه ناحيتي ، مر بلا مبالاة عابرا من جواري ، فكرت في النداء عليه مقتحماً خلوته ، قبل

عبوره للجانب الآخر ناديته ، تلفت وراءه باهتمام متوقفا، ما إن رآني حتى أسرع مهرولا إلى وهمس في حياء ..:

_ أتعرفني يا أستاذ ..؟!

_ الست أنت على المصري ..؟!

مسح رأسه بكفه زاما شفتيه وقال ..:

_ وأنت محسن عايش ..؟!

برقت عيناه بنظرة زائغة ، ورمى جسده في أحضاني كأنما كان يبحث عني ، معتصرا دفء سنوات مضت ، بادلته حرارة اللقاء متحدياً برودة الشتاء ، سألته..:

_ لماذا اختفيت فجأة ، وتركت المدرسة ..؟!

_ الدنيا ..!

واخرج تنهيدة أشعلت صندوق القمامة الذي يبخ عاصفة من الدخان الخانق ، خيل إليه أن كل

الواقفين على محطة السرفيس يستمعون إليهما ، فتوارى في ملابسه ، سألني عن أحوالي أجبته بحزن ..:
_ عايش ..!

وأفسحت له مساحة للفضفضة ، مجترا مرارة الأيام، وما عاناه في رعاية أخواته حتى أتممن تعليمهن وتزوجن .

كنت قد أهلت نفسي لسماعه تخفيفا عنه ، امتلأت طمأنينة ، إلا أنه أعاد ما قاله بطريقة مغايرة في الحكى شعرت منها عزمه على تكرار حكايته مع الأيام ؛ حاولت التركيز بنوع من الاهتمام ، تسرب إلى رأسي الصداع والملل حاولت إخفاءه مقاطعاً حديثه وقلت .. :
_ نحن جيل كتب عليه الشقاء قبل أن يولد ، ولدنا مع النكسة ، ولم نذق طعماً للفرح ، والدنيا سرقت أحلامنا ، كل شئ تحكمه المادة ، صرنا أرخص سلعة تباع وتشترى .

غيمت السماء .. اكتست بلون رمادي ، نكس رأسه قاذفا حجراً بحذائه البني فوق بلاط الرصيف ، وأصدر همهمة تاهت في ضوضاء السيارات العابرة بسرعة جنونية.

استشعرت برودة قارصة غلفت المكان ، برقت الدموع في مقلتيه .. وزغللة الشعيرات البيضاء التي أغرقت رأسه ، قبضت على يديه بحرارة مخففا عنه ، فانسابت من شفتيه كلمات مثقلة بالحزن ..:

_ أنكرني الجميع ما أشد قسوة الحياة أن تعيش وحيدا.

ضممته لصدري محاولا التخفيف عنه ، بدا كطفل صغير يبكي بعد أن تركته أمه ..عتبت على الزمن الذي انقلب حاله .. وفاحت مرارة الوحدة من نظراته المنكسرة .. ربت على كتفه مواسياً ، وتسربت حرارة أنفاسه لجسدي وتملكتني رعدة ورغبة في البكاء ، فانسابت الدموع تغرقني !!

تذكرت الموعد الذي خرجت من أجله ، حاولت الانفلات منه أودعه في عجالة ، ووعدته بلقاء قريب قد تصنعه الظروف لانشغالي بأشياء كثيرة تتعلق بلقمة العيش .

بدت صورته المليئة بالتجاعيد واضحة ، وتسرب داخلي حزن عميق تملكني ، ورحت أرقب طيفه الذي تلاشى في زحام الناس .

العيون

رعشـة في القلـب تـهز أوتـار النبــض .. والفتـى العمـرى زينـة الفرسـان يرشــق سـهام الشــوق ، مقيـدا بالخجل وتنهدات النار ..أتمنى لو يتسلل ، يفك طلاسم النقش المحفور على الأشجار يقولون ..." إن لهذه اللغة زمانـاً مضـى ، وإن الممـالك قـد هجرهـا سـاكنوها ، والجفاف أعدي الحواس المتسربلة الصحارى .."

سحرتني ورود البنفسج وهامت بعطرها النظـرات الهائمة المصوبة من حدقة القوس القزحـي ... ، ... ياااه ويقولون ..:

(إنـه عضلـه لضـخ الـدم ، وإن العواطـف مسـألة عارضـه فيه..؟)

ينبت قصوراً من الأحلام ، والغازي توقف عند حدود الصمت داخل الننى ، يطل من الخص المعرش بريشة مكحلة بليل السهارى .

اتخذت صومعة الرهبان ، ورحت تفتش عن اللاشيء غرقت في بحور العطش ، والسراب خيل – الماء أمامك مستحيل ، والفرس وقع في أول الطريق .. أنهكه سواد الليل الثقيل ، ورعشة برد الشموس .. راح يهذى من حمى العواصف ...:

" وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله

عليَّ بأنواع الهموم لتنجلِ " *

_ ترى هل مازلت تتألم من الجرح ..؟!

الآن أكاد أحس به .. بان علي وأكد ذلك زميلاتي ولمحن ..:

_ " الولد طيب وابن حلال .."

---

* بيت الشعر من معلقة امرؤ القيس الشاعر الجاهلي

أتظاهر بأن الكلام ليس لي وغيرت الموضوع ..
تهامسن وضحكن ، بينما النبض يعزف مقطوعة عاشق الروح. عيناك الحلوة بطعم الحنطة أسكرتني ، والنظرات اعتصرت من الكلام المعتق لغة للعيون ..!!

على روحي بكت روحي ، تزودت بعشق سماوي ونادمت الخيام وابن أبى ربيعه بكؤوس الهيام ، تمنيت أن تكون العمرى ؛ وتغزو حواجز المستحيل ؛ تخطفني على جوادك النهاري بين ليالي الألف ، تغامر في حواديت الحاضر ، تضم بنفسجية الصبح الندى المشتاقة للنور ، تطفئ نيران الطلل النابت من الحرمان ، تسقى أشجار الصبار الساكنة القلب ، والهمس متحشرج النظرات يقيم طقوس توليك العرش ملكا على مملكة العذريين بتاج صنع للقصير من تبر الآهات وطرز بلؤلؤ الدمع المنسكب من العيون العسلية. ترهبنت .. دخلت المعبد وقدمت قرابين الروح ، ركعت تحت قدم حلم

الأميرة المطل من الغد البعيد القريب ، علك تقترب لتفهم ولو حرفين ن طلاسم النقش الواضح بالإشارات والغمز تخاف وتحتمي بحصون الخجل وحمرة عيون السهارى ، وتفرش الحواس بخضرة هدهدات النفس ، وتتوه طلاسم اللغة عند حدود التمني حين نقعد متباعدين نتبادل همس السكوت الطويل ، نستقبل دفء العواطف على موجات الشعور ..

المعلمة التي دخلت الفصل قالت .. :

_ قيام ..

_ قمنا.

المعلمة التي دخلت الفصل - آية في الجمال - هكذا سمعت أمي تقول عن البنت فردوس جارتنا التي أحب اللعب معها .

فردوس حلوة .. والمعلمة الحلوة قالت .. :

_ جلوس .

_ جلسنا .

فستان المعلمة التي دخلت الفصل حرير مرسوم عليه ورد أحمر وعصافير رصاصي ، مريلة فردوس تيل بني باهت.

المعلمـة الـتي دخلـت الفصـل جلسـت علـى الكرسـي وقالت .. :

_ شمس ..

قلنا ..:

_ نعم .

المعلمة الـتي دخلت الفصـل شمـس تنـور الدنيا ، قـالت وهى تخرج مرآة من حقيبتها اليدوية .. :

_ قمر .

قلنا ..: صحيح .

المعلمة الـتي دخلـت الفصـل شمـس وقمـر وعصفـورة رصاصي ووردة حمراء حرير ، قالت بزهق شديد .. :

_ قمر .

فنمنا فـوق الدكـك ، ورأيـت فـردوس عروسـة المولـد ، الخـدود تفـاح وعصفـورة فـوق شـجرة التـوت الكبـيرة وشمس وقمر .

المعلمة التي في الفصل رسمت بالطباشير الأبيض على السبورة السوداء قرصا كبيرا وقالت .. :

ـ شمس ..

ففركنا عيوننا نطرد النوم مع دق جرس الفسحة ..

المعلمة التي دخلت الفصل بإشارة منها قمنا وبإشارة جلسنا كانت المعلمة التي دخلت الفصل قد أشارت إلى صورة لولد وبنت في كتاب القراءة وقالت .. :

ـ سوسن ونصر ..

رددنا ..:

ـ سوسن ونصر .

المعلمة التي خرجت من الفصل طويلة والبنت فردوس قصيرة وأنا أكبر من فردوس .

بفرح خرجنا إلى الحوش الكبير نجرى وراء خيوط الشمس الكبيرة .



متتالية للحزن

(١)

المرأة بنت العشرين ، ما أن شعرت بتكور بطنها يظهر على الفستان الضيق حتى تدللت وحكت كتف زوجها وهمست :

ـ الواد بيلعب .

فمال برأسه متسمعا لصوت تخيله ..:

ـ عيب اختشي يا ولد .

(٢)

الطفل الذي يحبو في وسط الصالة على أربع ، حين سحبته الدنيا لحضنها بكى بشدة .. حتى احتار الجميع .. فهدهدته الجدة فوق الكرسي الهزاز ،

وراحت تلقن تعاليم خبرة تربية خمسة أولاد وبنتين لزوجة الابن التي ضاقت من الأوامر ، وبدأت تتشاكى وتتباكى بأنها مظلومة ولا أحد يطيق هذه العيشة.

ولأن الجدة تحب ابن الابن احتضنته وراحت تتوكأ على عكاز الجد ، تمسح جدران المنزل الذي كان مملكتها تأمر وتنهى فيه ، تطيع الأوامر ، تتحسس قطع الأثاث التي استبدلها الابن ولم يبق إلا الكرسي الهزاز الذي أصرت على بقائه ، مركونا في ركن الأنتريه المودرن ، تنهدت وقالت ..:

ـ عيني عليكي يا دينا ..!

(٣)

الأب الذي يجلس مهموما بهموم الدنيا كلما حسب الحسبة ضرب كفيه وتملكه الحزن ، ومطالب الأولاد كثيرة ، الشقة اختنقت بأهلها حتى أهمل أمه

ونسى عادته الصباحية كلما هم بالخروج طبع على جبينها قبلة وقال ..:

- ادع لي يا أم .

فتردد بتلقائية ..:

_ ربنا يجعل دعواتي من حدك ونصيبك ، وينصرك على مين يعاديك.

(٤)

الأولاد الذين ربتهم الجدة شغلتهم الحياة واسروا لأنفسهم ..:

_ آه لو إن الغرفة التي بها الجدة فارغة ..!

وتمنوا ... ..

فخرت الدموع من عين الجدة الوحيدة ، واستسلمت للفراش حتى حرمتهم الحياة من حنانها ، فبكوا جميعا لفراغ الغرفة وفرض الحزن وصايته على الكرسي الهزاز.

(٥)

المرأة التي كانت بنت العشرين رسم الزمن عليها تجاعيد الأمومة ، وغرقت في هم العيال الذين كبروا وشغلتهم الدنيا ..!

وفوق الكرسي استراحت ، خاضعة لأوامر زوجة الابن الأكبر بنت العشرين ، وتطلعت للأب الجالس يتصفح جريدة الصباح ، تنهدت وقالت في نفسها .. :

_ هذا حال الدنيا ..!!

الحياة مرة أخرى

وصلت في الموعد المحدد ، الشارع الممتد بطول الكورنيش ، تتدافع فيه السيارات ، عابرة فوق الأسفلت القاتم ، واللافتات معلقة على نوافذ البنايات العالية ، أسماء كثيرة أجهلها ، رائحة الغروب خلفت ظلمة شاحبة ، وريح باردة عصفت بأعضائي ، أشجار الزينة تغطيها ظلمة .. بدت كنسوة في ثياب الحداد ، أحرك قدميّ بثقل ناحية مظلة هرمية مدهونة بلون أخضر باهت ، عليها لافتة تشير لإحدى مساحيق النظافة.

تحركت ببطء خشية الانزلاق في وحل الطين ، نتيجة سقوط أمطار الصباح (منذ يومين والسماء لا تريد أن تكف عن البكاء ، لقد أكد خبراء الأرصاد على أن

اليوم هو الأخير لمرور هذه الموجة الباردة ، ومع تحسن الجو في الظهيرة قررت الخـروج ، لا أستطيع أن أخلف موعدي مع حبيبتي مهما كان الأمر ، معها اشعر براحة نفسيه ، واغتسل من متاعبي ..)

اقتربت من مقعد خشبي ، بصعوبة جلست مستندا على العكاز الحديدي ، والنار التي في فخـذى اليمنـى ، جعلت النقر يزداد في رأسـي ، فتوتـرت أعصـابي ، سـرت رعشة في مفاصل قدمي .. (لا شك أن هذا الجهاز الذي صار بمثابة خازوق ألبسه هو السبب فيما أعانيه من آلام ، لازمني كرها ، دخل حياتي منذ سنوات الطفولة ، قبلـت مصادقته مضطرا كـي أخفـي عجـزي الـذي تركـه شـلل الأطفال ذلك المـرض الملعـون ، روضـت نفسـي عليـه منفذا نصائح الأطباء ..)

فـردت سـاقي المقيد بأربطـة جلديـة ، وطـوق الحديـد حـول الركبة حتى مشط القـدم ، أخفـي ضمـور العضلات

بأربطة الشاش ، على الرغم من ذلك أشعر بآلام فظيعة ، تسرب اليأس لحياتي وفقدت الرغبة في العيش منذ الصغر .. تخفيت عن أعين الناس بادئ الأمر كلما شاهدت أطفالا يلعبون .. فوق المقعد فردت قدمي ، بصعوبة حركت الجهاز الثقيل مستعينا بالعكاز الذي أتوكأ عليه.

دائما افضل الاختلاء مع النفس ، أفكر في حياتي التي أصبح لها معنى منذ تعرفت على (سحر) ، كلما قابلتها أحس بطعم الحياة ، واهبها روحي لتخلقني إنسانا جديدا ، لقد كنت من قبل شبه دمية ، تتحرك بالدفع الذاتي للزمن ..

(آه .. يا سحر ..

لو تعلمين مدى حبي لك لما تأخرت لحظة ،

سحرتني الغمازتان وطابع الحسن ،

وعينان زرقاوان زرقة البحر ، غرقت فيهما ...

وعلى يديك ولدت من جديد يا سحر .)

تداعت صورة أول لقاء بيننا في الجامعة ، وحديثها للأستاذ بثقة ، تجادله في آرائه الرجعية ، ونظرته المتخلفة لخروج المرأة ، أحرجته أمام الطلاب دفاعا عن نفسها ، وبنات جنسها قائلة له .. :

ـ إن المرأة كائن له كيانه ، لها حقوق مثلها مثل الرجل تتساوى معه ، ليست قطعة أثاث في المنزل يبدلها الرجل متى شاء ، لقد انتهى زمن العبودية للمرأة .

دفعني العناد للتعرف عليها بأي وسيلة ، ومد أواصر الود ، والوصول إليها ، تعمدت إسقاط العكاز من يدي أمامها فمالت عليه ، وأعطتني إياه ، شكرتها في المرة الأولى وخفق قلبي لحديثها ، ولمحت في عينيها شقاوة جعلتني أتحدى العالم ، قررت الارتباط بها رغم قسوة الظروف وضيق سعة اليد ، كلما تقابلنا ، اخرج من عزلتي ، وأبوح بوجد سيطر على مشاعري .

لكن ما ذنبها أن تعيش مع إنسان عاجز ، ليس هذا عدلا ، ما ذنبها كي تدفن زهرة شبابها معي ، هي التي يتمناها آلاف الشباب .؟ أكيد تؤنب نفسها على وعدها لي ..؟ ربما تنتظرني أن أحلها من عهدها .. لقد فترت العلاقة في اللقاءات الأخيرة ، صارت مجرد كلمات عن الصحة والأحوال .. وتسيد الصمت ، والنظرات ..

الآن كلما تلاقينا اشعر بعقم في عواطفي ، ماتت أحاسيسي ، فقدت الرغبة في كل شئ ، مؤثرا العزلة والابتعاد عن الناس .

ترى لماذا تأخرت إلى هذا الوقت ..؟

اليوم سوف احدد مصيري ، وأنهى العلاقة ، ننفصل بالمعروف ، بلا حرج ، انزف وحدي أحلامي ..

السيارات المارقة ، تمر مخلفة وراءها دخانا ، وهواء يعفر الجو ، الكورنيش دبت فيه الروح بفتيان ،

وفتيات ، وبائع الترمس يتمايل على نغمات صوت أم كلثوم ، تغنى أنت عمري.

فجأة تسرب إلى أذني حوار بين ولد وبنت في مقتبل العمر ، لم يتجاوزا سن العشرين ..:

_ إيه اللي حصل يا هشام .. شرين غضبانه ليه ..؟!

_ صدقوني يا ناس أنا بحبها .. لكن ما باليد حيلة ..!

قال الولد بحزن شديد ..!

انتبهت .. أصغى السمع .. بعناية رحت أشاهد ما يدور بينهما .. ناظرا للشاب الجالس على سور الكورنيش، ممسكا أجنده محاضرات ، عرفت أنه طالب جامعي ، اقتربت منه البنت السمراء نحيفة الجسد قائلة ..:

_ إذن حدد موقفك .. أهلها انتظروك بالأمس كما وعدتها ولم تذهب.

انسابت الكلمات من بين شفتيه بتلقائية ..:

_ صدقونا بحبها ، لكن العاطفة شئ والزواج شئ آخر لا أستطيع تحمله الآن ..!

_ حرام عليك يا هشام شرين بتحبك .. بلاش تلوعها .

واقترب منه شاب آخر يبدو انه زميل لهما قائلا ..:

_ حدد موقفك ، عايزها ولا لأ ..!

اعرف مدى تعلقها بي ، لكن الفرق كبير ، أنا من أسرة متوسطة الحال وهى من أسرة غنية والفروق الاجتماعية كبيرة قالت البنت .. :

_ شرين بتموت فيك ولا يمكن تستغني عنك ..

لقد تعرفت على بنات كثيرة ، أما شرين فلها معزة خاصة ، بحبها يا ناس وعلشان كده لازم نفترق .

شعرت بمدى وقع الكلمة على أذني .. (نفترق بكل هذه البساطة يقولها .. أكيد أن هذا الولد لا يحبها ، ويتسلى بالبنت ، ولد العُبان من أولاد هذا الجيل الذي لا يقدر المسئولية ..)

سرحت في شرودي ، تكاثفت على الأفكار ، اتخذتني فريسة.

ترى هل أستطيع نطق هذه الكلمة هكذا ، أقتل نفسي بيدي ..؟! الساعة تعدت الثامنة ، وسحر لم تأت ، نجوم السماء غابت في بحار الغيم ، واختفى نور القمر ، أضواء مصابيح أعمدة الكهرباء تنتشلني من الوحدة .. أفقت على صوت فتاة خمرية .. خصلات شعرها الناعم ، يطوحه الهواء ، نبرات صوتها تنم عن عذوبة ورقة ، تبعث في النفس شجنية ، تحرك القلب ، المثقل بالوجع .. اقتربت من الولد هشام الجالس على حافة السور وقالت.. :

_ قدامك لحد بكره ، تحدد موقفك إذا كنت عايزني ، ماما وبابا عارفين كل حاجة ، وموافقين نرتبط ، وعلى اقل من مهلك وقت متقول جاهز ، إحنا في انتظارك بكرة الساعة سبعة ..

وانصرفت وهي تبكي بسرعة دون وداع صديقتها التي مازالت تلح على الولد الذي أعطاها ظهره قائلا .. :

_ كفاية بقى يا هدى كل شئ أنتهي ، الارتباط الرسمي مستحيل.

صوب نظراته لماء النهر الساكن ، منشغلا عن الجميع برمي حصوات التقطها من فوق الرصيف .. وصوت أم كلثوم يأتي من بعيد ..

(اللي شفته قبل ما تشوفك عينيه

عمر ضايع يحسبوه الناس عليه)

كانت الدوائر الصغيرة على سطح المياه تتسع وتتسع حتى تتلاشى في تموجات المياه ..

تركوه وحيدا منصرفين عنه ، بعد أن خذلهم ، وجلس يحدث الصمت .... بينما بائع الترمس منتشيا بالأغنية ويردد طربا ...!

(يا سلام يا ست اهو ده الفن ولا بلاش ..!)

لاحظت تأخر الوقت ، وشعرت ببرودة قارصة ، تسللت لجسدي رغم ملابسي الصوفية ، .. قمت من مجلسي بعناء شديد ، وقفت ، واضعا العكازين تحت إبطي .. بدت العمارات الواقفة شاحبة ، والشارع الممتد بطول الكورنيش ، يميل للصفرة الشاحبة ، وأشجار الزينة شاحبة ، تعكزت على قدمي ، كدت اسقط لولا تداركي ، مستندا على عمود النور ، اجر الخطى ، بعناية وحرص اهبط الرصيف ، استعدادا للعبور ، اقف .. أرقب الطريق الطويل ، بعد تأكدي من خلوه من السيارات المسرعة ، مشيت عابرا للجهة الأخرى .

***

كانت السماء الملبدة بالغيوم تنذر بالمطر ، حاولت الإسراع ، لكن الجهاز الملعون ، كتف حركتي ، لا أستطيع التحرر من عبوديته .. وسحر التي واعدتني ، أخلفت الوعد ولم تأت .. غزت رأسي أفكار كثيرة ، وما

دار بيننا فى آخر لقاء ، واليوم كنت قد قررت إنهاء العلاقة ووضع حد لها ونفترق إلى الأبد ...

بدأت نقط المطر تعلم على الأسفلت المخنفس ، بخطى بطيئة ، تحديت الريح وسرت على الطريق ، أحدق في البنات والناس بحثا عن طيفها ، وبسمتها التي تعيدني للحياة مرة أخرى كلما شعرت باليأس ، وضاقت بي الدنيا . مع زيادة القطرات الساقطة من السماء ، توقفت على مدخل إحدى العمارات القريبة من الكورنيش ، مكتوف القدمين ، أفكر في التي غابت ، مشتت الذهن بلا إرادة .. انسابت دمعة من عيني في بحر الوحدة .. ترى لو جاءت سحر اليوم هل كنت أستطيع إنهاء علاقتي معها ..؟!

خرجت إلى الشارع الموحل ، وسرت متحديا المطر

" صيد المطر "

" بين الرؤية .. والغياب "

د./صابر عبد الدايم

(١)

تتوالى موجات النتاج القصصي .. جيلا بعد جيل ، وفن القص يجذب الكثيرين من أصحاب الملكات الإبداعية والمواهب الأدبية الذين يستطيعون أن يعيدوا تشكيل وقائع الحياة تشكيلا فنيا يمكن أن يتجاوز حدود اللحظة، وجدار الوقت .. ليصبح لوحة إنسانية تتراءى في خطوطها وألوانها حالات الإنسان المتباينة انكساراً.. وصموداً ؛ قلقا وسكينة ، مواجهة وهروبا ، ضعفا وقوة ، توتراً وثباتاً .

والقاص يقدم تجربته .. في إطار الأسلوب .. الذي تلاءم مع رؤيته وتجربته والأسلوب التعبيري لا ينفصل عن

المعني / الرؤية بوجه من الوجوه إذا أخذنا المعني بمدلوله الواسع -.. وهو الذي قسمه الناقد " رتشادز " إلى أربعة أقسام وهي " المعني الإحساس والإيقاع والقصد " .

فالإحساس هو موقف الكاتب من المعني الذي يريد نقله ، والإيقاع هو وسيلته إلى الاتصال بالقارئ ، والقصد هو الغاية التي يسعي الكاتب إلى بلوغها ، وعملية الكتابة كما يقول د/ محمد يوسف نجم " ليست إلا كفاحا متصلا مع متطلبات المعني والإيقاع والإحساس والقصْد ، وكثيراً ما تتفرع طرقها ، وتتضارب حاجاتها " .

(٢)

إن فن القَّص يحتاج إلى خبرة حياتية تلتقط أسرار التجارب الإنسانية ، وتتأمل المشاهد الحياتية ؛ وترْصد حركة المجتمع المتصادمة .

والمجموعة القصصية " صيد المطر " للقاص " إبراهيم عطية " .. تنبئ عن موهبة وخبرة في ميدان القص ..، وتشي بارتباط القاص بجذوره الاجتماعية في الريف ، وتؤكد انتماءه لتراب قريته الرمز ، .. وهذا النزوع إلى عالم القرية يمتزج فيه الإحساس الرومانسي الحالم بالتوجه الواقعي الساخر الرافض لكثير من المشاهد والقيم التي أغرقت المشاعر والعلاقات الدافئة في متاهات الاهتمامات الشكلية الطارئة المستحدثة والتي شوهت صورة الريف ، حتى أصبح في كثير من المواقع مَسْخاً شائهاً.

وتجسدُ هذه الرؤية ذات الإيقاع الساخر والقصد النبيل الرافض ، قصة " انكرتني بيوت القرية " وهي أقرب إلى " فن المذكرات " .. ولكنها تبوح بما أراد القاص توصيله من خلال " ضمير المتكلم " الذي سيطر على السَّرد حيث الطبيب .. ابن القرية .. يعود إليها .. محمَّلاً

بالحب .. والرغبة في علاج أهل قريته .. والالتحام بهم عملا بوصية والده الذي قال له ..

" اللي مالوش خير في أهله ليس له خير في الناس "

ويُصدم " الطبيب " العائد .. حين يتجاهله أهل قريته .. ويصور هذه الصدمة في هذا الاستدعاء الواقعي .. الذي يتكرر كثيراً ..

" مررت بالناس الجالسين على مقهي أنشئ في قلب القرية حاملا حقائبي دون أن يستوقفني أحد ، وتعجبت .. لقد أنكرتني بيوت القرية وأهلها "

وصدقَتْ أمي حين قالت " إن الناس حالها تغير ، ولا أحد يعرف أحد في هذا الزمن الغريب"

والمفارقة تكمن في حيرة هذا الطبيب بين وية أبيه وبين واقعية أمه واعترافها ومعرفتها بطبيعة الناس وظروف العصر أو " الزمن الغريب "

وفي قصة " التكعيبة " تتأمل جذور الانتماء ؛ وتبدو الرؤية إيجابية رافضة لسلبيات الواقع .. ومغْريات الزمن المادية اللاهثة وراء " الميراث الجاهز " !!

وهي : لوحة قصصية أجاد القاص بناءها رؤية وفناً في سهولة وعذوبة بلا تكلف ولا إغراب .. وكأنها حكاية من هذه الحكايات الشعبية الجميلة .. ، والرؤية هنا تنبع من الانتصار للخضرة والنماء ؛ ورفض التركة المجْدبة التي يتصارع عليها الأبناء بعد موت الجد صاحب " التكعيبة "، الذي زرع فرع العنب الجاف فأصبح تكعيبة عنب خضراء مثمرة .. ولكن " الورثة " أهملوها فجفَّت وغدت عروقا يابسة ؛ فماذا يعمل " الحفيد " القاص / – لابد من فعل ثوري إيجابي إنه أحرْق بقايا التكعيبة اليابسة التي في حوزة عمِّه وكأنه يحرق الجحود والإهمال .. وعدم الانتماء ، ولم يكتف بذلك بل أعطي لهذه الثورة وجها إيجابيا انتمائيا حين يختم قصته بهذا

المشهد المقاوم لكل السلبيات والنفعيات المعوّقة يقول " لكننا قد عزمنا أنا ومحمود على بناء التكعيبة أمام الدار ، جئنا بالشتلات وزرعناها ، وبعد أيام انشرح صدري لرؤية الأوراق الصغيرة ، وترحمت على جدّي .. وقرأت على روحه الفاتحة "

(٣)

ورؤية الكاتب هنا تتجاوز الارتباط بالجذور .. لترتبط بدائرة أكبر وهي الارتباط بحركة الصراع الوطني .. مع أعداء الوطن ، وحركة المدّ النضالي منذ فجر التاريخ الحديث .

وقصة " سيرة ما جري " رؤية كاشفة .. ولوحة تجسد سخرية القاص من جَهْل المحْدَث بتاريخ النضال الوطني .. وعدم معرفته بزعماء الوطن ، وعدم الاندماج النفسي بالمدّ السياسي .. والنبض الوطني ، ويتمثل ذلك في تجسيد المفارقة بين زمنين وواقعين .

إن القاص يصور .. في سخرية فنية .. ما آل إليه موقف الناس من " الزعيم أحمد عرابي " الذي لم يعد له وجود إلا في صورة هذا التمثال الواقف بميدان محطة السكة الحديد .. وجسد الكاتب غفلة العامة وجَهْلها بتاريخها .. في صورة فنية حين جعل أحمد عرابي ينزل من على حصانه ويتحرك بين الناس بملابسه " القديمة .. وقد سخر منه الناس ، وظنوه مجْنونا .. لأنه في هيئة غير هيئتهم وكأنهم انفصلوا عن تاريخهم وزمنهم .. وهذا التصرف الفنّي .. يعيدنا إلى قصة " حديث عيسي بن هشام " لمحمد المويلحي ، والحوار التالي .. يكشف عن إدانة القاص للواقع المشوَّه .. الغافل الجاحد " تقع عينا الزعيم على غلاف كتاب (تاريخ مصر الحديث) فيشير للأطفال بالتوقف لكنهم يجْرون فارين .. بعد أن أطلقوا في وجْهه وجروا وراءه في مشهد سابق قائلين " هيه بلياتشو .. بلياتشو .. وقالوا جميعا

البلياتشو أهوه .. البلياتشو أهوه "

يقول الزعيم .:

ألا تعرفوني يا أحفادي أنا الزعيم

سخروا منه وفروا هاربين ؛ همس لهم الولد " القزعة " بالتوقف

استنوا سامعين بيقول إيه " الزعيم " ..!

صحيح ما يمكن هوه بشحمه ولحمه .. عادل إمام .. بس متنكر .. شوفوا عينيه ..!!

رد عليه زميله صاحب الراء الضائعة .. " ولنتأمل هـذه اللغة الواقعية ذات الدلالة "

" يا خويه لو كان هوَّه " الزعيم " .. كان الخبيْ ذاع في المدينة [أي " الخبر "]

وخيَجَتْ الناس لمقابلته .. [أي خرجت الناس لمقابلته]

وبعد الأطفال .. تتهمه سيدة برميلية الشكل بالجنون ، وحتى الشيخ صاحب اللحية ..والزبيبة الكبيرة لم ينج منه عرابي .. حين قال له في مودة ..:

" تسمح يا سيدنا الشيخ ..، فإذا بالشيخ الذي يجسد التطرف الديني وعدم فهم الكثير من القضايا الإسلامية .. ينفر منه بقرف ويخرج من تحت جلبابه " سنجة " ويشهرها في وجه " التاريخ .. والوطن .. الذي رمز إليهما بالزعيم عرابي ، فيقول له " المتطرف " " إن لم تستح يازنديق قطعتك بهذه ، ابتعد عني لعنك الله يا نجس ، اخلع هذه المسخرة يا بن الـ ."

ويختم القاص .." سيرة ما جري " بمشهدين فيهما إدانة للواقع المشوب بالسلوكيات الانتهازية .. الغارقة في توافه الأمور ..، والغافلة عن الواقع الحضاري .. والمدّ التاريخي للأمة ، وحصان الزعيم نفسه .. يتجاهله .. ويلهث وراء نزواته حين يلمح مُهْرةً جميلة تجر العربة

الكارو .. ولكنه يلقي حتفه حين ترتطم رأسه بعمود الخرسانة وهو يغطس في الماء .. وإذا بالصياد يفْرح حين تطفو جثة الفرس فوق سطح الماء .. لأنه سيكون غذاء للسمك ، وسيزداد حظ الصياد من الثروة السمكية، وأما المشهد الأخير .. فهو يجسد موقف الكاتب .ز من إيقاع حركة الواقع .. وعلاقتها بهذه الصفحة المضيئة من كتاب تاريخنا .. وسفر نضالنا وصراعنا من أجل الوجود الحضاري الفعّال .. وذلك حين يبصر ميدان الزعيم وقد ازدحم بباعة الفاكهة والمتسولين وأسراب الذباب المتصاعد من مشنات الفاكهة الخ .. وفي النهاية تكون العبارة الأخيرة الساخرة الرامزة " والله ورخصت يا مشمش ..!! " .

وقصة " طلل النحاس " .. تنبع من الموقف الذي شكل الرؤية في " سيرة ما جري " .. وهو موقف السخرية والرفض ، وهذا الموقف يصور المصير المؤلم الذي آل

إليه بعض أبطال حرب أكتوبر ..، وهذا البطل الذي تجاهله الجميع حتى الجنود .. لم يعرفوه لأنه فقد كل ما لديه من معالم هويته .. " ليس معه كارنيه " فاتهموه بأنه حرامي سلاح " يا وقعة أبوك سوده كمان حرامي سلاح ..!! ".

وحين لم يجدوا معه " الكارنيه .. اتهموه بانتحال شخصية أخري : قائلين ..:

[وكمان منتحل شخصية عسكرية يا روح أمك .. وقعتك مطينه "

والقاص على الرغم من هذه الرؤية التشاؤمية .. الغارقة في الواقعية المحزنة .. لم يترك لليأس طريقاً في عالم هذا البطل المجهول ..

وفي مشهد واحد يجمع بين النقيضين .. التجاهل .. والمقاومة والتمسك بشرف الجندية .. فبعد أن اتهم هذا البطل باللصوصية وانتحال شخصية عسكرية " انهالوا

عليه ضرباً ، وتجلطت بقع الدم شاراتٍ حمراء على الأكتاف ، وبركلة قوية من الخلف سقط محتضنا العلم والسلاح ..!! "

شعر بفراغ الكون ، إنه بالتأكيد وقع أسير خدعة في أحد معسكرات تعذيب للعدو .. لم يحدث شئ كهذا من قبل!! غرق في ظلام وحدته ، ترسبت ظلال الملح الهشة فوق طلل النحاس المغبش ، وفرد ظله الممدود على الساحل، اخترق السكون صوت جندي حرس الحدود يتمم مع أفراد خدمته ..: واحد تمام ، يعود رجع الصدى مع هدير الموج .. واحد تمام !!

ورؤية الكاتب تدور في دائرة الرفض والسخرية .. وتجسيد المفارقات الحياتية .. والتقاط المشاهد المأساوية ، التي تُعلن عن سيطرة الجحود والنكران ؛ والشخصيات التي تلعب الأدوار الرئيسية في هذه

المجموعة من النماذج المقهورة المحبطة التي يتجاهل المجتمع قدرْها ، وينْ دورها ..

وقد وظف القاص عدة طرق فنية .. ووسائل تعبيرية لتقديم رؤيته في صيغة فنية تأثيرية ومنها ..

توظيف الأمثلة الشعبية والأغاني والمواويل .. والشعر الفصيح والعامي في إضاءة الأحداث والكشف عن باطن الشخصيات ، وتجسيد معالم البيئة .

ففي قصة " خمسة أمتار بالتمام تعيد الثقة " وهي تجربة نفسية لغوية .. تصور المشاعر المائجة داخل النفس عبر مونولوج داخلي .. وحوار نفسي ..

في هذه القصة يأتي المثل الشعبي بمثابة آلة التنبيه التي توقظ ذلك المتردِّد الذي أضاع كثيراً من فرص الحياة فليس أمامه خيار .. إما القفز والفوز .. وإما الفشل والسقوط .. والنهاية المأساوية . فيردد البطل ..

" الآن لا يوجد فرصة للاختيار ، إما الحياة أو المـوت ، أعتقد أنه مهما كان الأمر فإن المسألة منتهية ويا روح ما بعدك روح " .

وفي قصة " أنكرتني بيوت القرية " يأتي المثل الشعبي مؤكداً البُعد الاجتماعي .. ومجسِّداً حالة الانتماء .. إذ يقول الأب وهو يوصِّي ابنه .."

اللي ما لوش خير في أهله ليس له خير في الناس "

وفي قصة " طلـل النحـاس " تطـل أصـداء أغنيـة عبـد الحليم حـافظ .. لتعيد ذكريات زمن الحلم والنضال .. والانكسار ..[نفـوت على الصحرا تَخْضر ، نشقي خدُود الناس تحمر "

والموَّال يصنع الحـدث .. ويفسِّر .. ويكشف عن طبيعة الشخصية حيث تكون إجابة الجد عن سؤال حفيـده الذي سأله عن فِرْع العنب اليـابس : هـل ينبـت بعـد ذلك.؟

وهذه الإجابة يقدمها الجد في صورة موال شعبي .. يجسد رؤية الكاتب ويضئ الحدث

" يا زارعين العنب وارموا كنابيشي .. زرعت لك العنب ري الطرابيشي

يا ساقيه دوري يمين وشمال .. واسقي العنب والخوخ والرمان "

الصور التعبيرية التي تجسد انفعالات النفس ؛ ومنها الصور التي تأخذ طابعاً أسطورياً وهي ليست كثيرة .. لأن القاص يجنح إلى اللغة السهلة ، وهو يفرط في استخدام اللهجة العامية في كثير من المشاهد القصصية ، وبعض القصص التي تتشكل من النسيج الغوي .. تنأى عن الواقع وتغرق في عالم الرومانسية والأحلام الوردية .. والأسى .. والجراح .. والرغبات ذات الطابع الرومانتيكي الدافئ ، ومن هذه الصور الأسطورية التي تجسّد الانفعالات النفسية .. هذه اللوحة التي يقدمها

القاص على لسان البطل ساعة القفز في قصة " خمسة أمتار بالتمام تعيد الثقة " إذ يقول " أنا الوحيد في هذا الفراغ .. أفزعني ذلك المخلوق الفاتح شدقيه مبتلعا السماء ، عيناه الجاحظة تشع شرراً يشبه النيازك .. لو سقطت على واحدة أحرقتني "

وعلى الرغم من طرافة هذه الصورة .. فإن القاص لا يتمسك بالدقة اللغوِّية ، وسلامة اللغة وصوابها التركيبي له حتميته في سموق العمل الفني ..، فالعبارة السابقة بعيدة عن صواب التركيب اللغوي ؛ وحتى تكتمل عناصر الصورة بناء وفناً وإيحاءً لابد أن تكون العبارة هكذا " عيناه الجاحظتان تشعان شرراً يشبه النيازك ، لو سقط على واحد منها لأحرقني " .

(ج) الألفاظ العامية في السرد والحوار .. وتقديم اللهجة السائدة الساخرة المعبرة .. وهي تصور داخل بعض الشخصيات .. وتوحي بشكل الحدث .. وتومئ إلى بعض

المصطلحات التي تحدد البيئة القصصية مثل المصطلحات التي يستعملها الجنود في قصة " طلل النحاس "

وفي قصة " حصان خشب " تبرز طقوس البيئة الشعبية .. من خلال الحدث والشخصية .. والكلمات .. واللغة والممارسات اليومية .. في هذه القصة الجيدة ترد هذه الجمل ذات الدلالة الشعبية العميقة " سوف تريني الحاوي الذي يبلع النار ، ويعزّم على البيضة فتفقس كتكوتا في الحال ...، ورجل يَغْلب السَّبع ، الخ "

(و) التكرار الذي يجسد الملل النفسي والرغبات الدفينة

وهذه الخاصية الفنية نجدها في قصة " شمس وقمر " وهي قصة أقرب إلى " أدب الطفولة " والتكرار من خصائص هذا الأدب .. تكرار الكلمة والصورة .. والحدث .. والصوت ، وعبارة " المعلمة التي دخلت

الفصل " تتكرر ثماني مرات .." تأكيد فني لهذا المنحى وذلك التوجه "

(هـ) تيار الوعيْ .. والاتكاء عليه في تقديم الرؤية .. وفي بعض القصص تبرز هذه الخاصية الفنية في قصة " المطارد " كان بمثابة آلة الاسترجاع .. أو آلة الزمن .. التي يستدعي من خلالها .. ويسترجع صورة الزمن المرفوض ..

* إن هذه المجموعة تبشر بميلاد قاص موهوب .. ينتمي إلى جذور هذا الوطن .. ويحلم بالحرية .. ويَرْقب دائما مع رفاقه الذين يحلمون بالحرية .. الشمس التي تطلع من عيون الليل لتهب الأرض الحياة

المؤلف في سطور

إبراهيم عطية .

عضو اتحاد كتاب مصر .

رئس عدة أقسام في الصحف الإقليمية والقومية منها الإقليم ورأى الأمة ، جماهير الشرقية ، أخبار الشرقية ، جريدة الكنانة .

نشر العديد من الأعمال القصصية والرؤى النقدية في الدوريات الأدبية المتخصصة في مصر والأقطار العربية (أخبار الأدب-جريدة القاهرة-الثقافة الجديدة-مجلة القصة مجلة قطر الندى _ الجمهورية - المساء - الأهرام المسائي) .

أهم الجوائز التي حصل عليها :

المركز الأول للقصة القصيرة في جامعة القاهرة ١٩٩٠

الجائزة الأولي في القصة القصيرة لثقافة الشرقية

جـائزة الإدارة العامـة لثقافـة الشـباب والعمـال (القصـة القصيرة) عام ٢٠٠١م

جائزة الهيئة العامة لقصـور الثقافة في النشر الإقليمي المركز الأول كرئيس تحرير لمطبوعات ثقافة الشرقية ٢٠٠١ .

جائزة مجلة النصر في القصة القصيرة ٢٠٠٢ م

الأعمال المنشورة :

مجموعة قصصيـة (طعم الوجـع-إبداعات) الهيئـة العامـة لقصور الثقافة ١٩٩٨

تحت الطبع :

مجموعة قصصية (حوريات الضوء)

رواية (سبـــت النـــور)

مجموعة قصصية بالعامية (مس البدن)

رواية (للزقازيق دفء القرفة)

قصص للطفل (أولى أوَّل)

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. egyptianbook. org
E - mail : info @egyptianbook.org